أثر ظهور الإسلام
فى الأوضاع السياسية والاقتصاديه والاجتماعية
فى البحر الأبيض المتوسط

١

البحر الأبيض قبيل ظهور الإسلام :

عند ما ظهر الإسلاموأخذ يفسح لنفسه مكاناً فى عالم القرن السابع الميلادى ، كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة داخلة فى النطاق السياسى والحضارى للعالم الرومانى ؛ ولا يقلل من قيمة هذه الحقيقة أن ذلك العالم الرومانى كان إذ ذاك منقسما بالفعل إلى قسمين : شرقى يغلب عليه الطابع الإغريقى ، وهو المعروف بالبيزنطى ، وغربى تقاسمه الغزاة الجرمان فيما بينهم ، وأقاموا فيه دولا تحاول جهدها أن تجمع فى كيانها بين تقاليدها الجرمانية الأولى، وما وجدته فى النواحى التى قامت فيها من عناصر الحضارة الرومانية وتنظيماتها ، ويحرص ملوكها على أن يظهروا بمظهر المواصلين لحضارة روما ونظمها وتقاليدها . فلم يفقد البحر الأبيض طابعه الرومانى على الرغم من هذا التفرق، وإذا كانت الوحدة السياسية التى كانت تجمع أطراف هذا البحر إلى لواء واحد وتسيرها فى إتجاه واحد قد زالت ، فقد حل محلها رباط لا يقل قوة : هو المسيحية التى سادت شواطئ هذا البحر جميعاً وسيرت أهلها أجمعين فى اتجاه عقلى روحى متقارب تقارباً شديداً .

ا ـــ مظاهر بقاء وحدة حوض البحر الأبيض بعد الغزوات الجرمانية :

ولقد كان من مفارقات التاريخ أن المسيحية التى عاداها العالم الرومانى وتجرد للقضاء عليها زمناً طويلا ، كانت من أسباب تثبيت معالم الحضارة

الرومانية فيما انتشرت فيه من البلاد ، لأن رجال الكنيسة فى الشرق والغرب نشطوا — بعد صدور مرسوم ميلان فى فبراير ٣١٣ — فى تنظيم دولة الكنيسة متخذين النظام الإدارى الرومانى القديم أساساً للتنظيم الكنسى ، فأقاموا الكنائس الجامعة — الكاتدرائيات — بين أطلال المدن الرومانية الدارسة ، وأقاموا فى كل كنيسة جامعة أسقفاً يشمل سلطانه زمام « السيڤيتاس الرومانية » القديمة Civitas Romana ، ومن هنا ظهرت مكان الخريطة الإدارية الرومانية خريطةٌ كنسية تنطبق حدودها وخطوط تقسيمها على الخريطة الرومانية الإدارية القديمة ، وورثت الأسقفيات الناشئة الأهمية السياسية التى كانت للمدن الرومانية أو الهيلينية التى قامت فيها . ومن هنا أصبحت المدائن الرئيسية فى العالم الرومانى الذاهب مراكزَ أساسيةً فى العالم المسيحى الناشىء واحتفظت روما والقسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية وتريف وميلان وغيرها فى ذلك العالم الرومانى المتنصر بأهمية دينية روحية تعدل ما كان لها من أهمية إقتصادية وإدارية فى العالم الرومانى الوثنى الذاهب ، واحتفظت المدن الرومانية الثانوية بأهميتها النسبية فى العالم الجديد كذلك .

واجتهدت الكنائس فى نشر المسيحية ومد حدودها فى نواح لم تكن الحضارة الرومانية قد وصلتها ، وأنشأت فيها الأسقفيات على النظام الكنسى الرومانى ، وقام فيها الأساقفة والقسوس يقرأون الكتاب المقدس والكتب الدينية اللغة اللاتينية ، ويعلمون الناس هذه اللغة ؛ ونشأت الأديرة وغنيت بالرهبان والديارين ممن يقرأ اللاتينية ويكتبها ويعلمها فى نواح لم تدخل فى نطاق الحضارة اللاتينية أيام أوج الدولة الرومانية نفسها . . . أى أن نطاق الحضارة الرومانية زاد فى العمق والعرض وزاد الطابع الرومانى غلبة على حوض البحر الأبيض من جميع نواحيه .

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على الدولة الرومانية الشرقية التى عُرفت بالبزنطية حقيقة أن اللغة اللاتينية لم تكن تُستعمل هناك إلا فى شؤون الدولة ، وأن اليونانية غَلبت هناك كلغة للتخاطب والثقافة والكنائس ورجال الدين ، ولكن الدولة كانت تعتبر نفسها رومانية ، بل « الدولة الرومانية » الجديرة بهذا الاسم ، ولم يتنازل أباطرتها — إلى أيام شارلمان — عن حقهم فى سيادة الدولة الرومانية

كلها بحدودها القديمة .

ولم تكن الكنيسة هى العامل الوحيد على بقاء هذه الوحدة بين بلاد البحر الأبيض ، بل إن عناصر الحضارة والتنظيم الرومانية كانت من القوة والثبات بحيث لم تُغير الغزوات الجرمانية وتغير الأوضاع السياسية منها إلا قليلا ، فقد ظلت الأراضى تزرع وتستثمر على الأسس التى جرى بها العمل على أيام الرومان : ظل الزراع الأصليون فى أماكنهم يزرعون أرضهم كما كانوا يفعلون قبلا ، وإن كانوا قد أصبحوا يؤدون الضريبة إلى سيد جرمانى ، وظلت « الضياع » Villae الواسعة على حالها كما كانت أيامَ الرومان دون تغير فى الوضع أو النظام ، بل ظل مالكوها القدماء على حيازتها يعهدون فى استثمارها إلى ملتزمين conductores يؤدون إليهم أموالها ثم يجمعونها من الزراع ، وفى ذلك يقول هنرى بيرين : « . . ومن ناحية أخرى ، ظل نظام حيازة الأرض الرومانية دون تغيير حقيقى ، وإن سمى فى بعض الأحيان « إقطاع ارتفاق precarium » وفى بعضها الآخر « إقطاعاً فى مقابل خدمة beneficium » . وصور حيازة الأرض التى تصادفنا إذ ذاك تدلنا بوضوح على بقاء النظم القديمة ، فهى فى مجموعها تكوّن نظاماً عاماً لحيازة الأرض لا يختلف فى شىء عن النظام الرومانى . وظل نظام الملكيات العقارية الواسعة كاملا ، وقد أخذ الجرمان بهذا النظام ، حتى ليحدثنا جريجوريوس التورى Grégoire de Tours عن رجل (جرمانى) يسمى Chrodinus ، — ينشىء ضياعاً villae ويغرس كروماً ويبتنى دوراً وينظم زراعات ليقدمها إلى الأساقفة »[١] . . .

وخلاصة هذا الكلام : أن الإسلام عند ما بدأ يتوسع ويمتد خارج الجزيرة العربية ، وعند ما وصلت طلائع جيوشه إلى حدود الدولة البيزنطية جنوبى الشام ، وجدت نفسها أمام عالم رومانى لاتينى زادته المسيحية سعة وعمقاً وإيغالا فى الطابع اللاتينى وحضارته .

غلب الطابع اللاتينى — إذن — على البلاد المحيطة بالبحر الأبيض جميعاً والجزر الواقعة فى حوضيه الشرقى والغربى ، وساد الموانى الواقعة عليه طابع واحد

(١) Henri Pirenne : Mahomet et Charlemagne (2e. éd. Paris - Bruxelles, 1937), pp. 58-61.

متشابه، نجده فى القسطنطينية وسالونيك وإيفيسوس وأنطاكية وصور والإسكندرية وراڤنا وبيزا وجنوا ومرسيليا وطَرَّكونة وسبتة وبونة وقرطاجنة وسرقوسة وغيرها، حتى كان المسافر يتنقل بين موانى هذا البحر — فى الشرق والغرب، أو فى الشمال والجنوب — دون أن يشعر بتغرب أو إبتعاد عن الجو العام الذى عاش فيه وألفه. واستمر نشاط التجارة بين ثغور ذلك البحر، على رغم سيطرة الجرمان على الكثير من شواطئه وانتشار القراصنة فى الكثير من أحواضه.

وهذا الإحساس بالطابع اللاتينى عند رجال الكنيسة هو الذى حرك فى نفوسهم الطموحَ إلى السلطان، على اعتبار أنهم الوارثون الروحيون للعالم الرومانى الذى انتقل إلى رحاب المسيحية، وهو الذى حفز البابوات والكرادلة واحداً بعد واحد إلى الاجتهاد فى بناء دولة الكنيسة ومد أطرافها وتأثيل سلطانها حتى تحل محل الدولة الرومانية الذاهبة، وحتى يصبح البابا رأسها السيد الفعلى للعالم كله، ومن ثم بدأ البابوات والأساقفة وشتى رجال الكنيسة يتعاطون السياسة ويسهمون فى شؤونها[١]، وهدفهم الأخير تجديد الوحدة الرومانية تحت طيلسان البابوية.

ب — الناحية الاقتصادية :

ولم تكن الدولة الرومانية ذات عناية خاصة بالبحرية التجارية : لم تكن روما ميناء، فكانت السفن التى تقصدها ترسو فى ميناء صغير قبالتها على البحر هو «أوستيا»، ولم يكن اللاتين أهل بحار، ولم تكن الأجزاء الغربية تنتج محصولات أو مصنوعات تصدر إلى الخارج فى كميات تستدعى العناية والتنظيم، بل كانت إيطاليا الرومانية تعتمد على ما يرد إليها من الخارج من المحصولات والمصنوعات اعتماداً عظيما، ومن ثم كان معظم اهتمام أهل موانيها بإعداد ما يستطيعون المبادلة عليه من الأشياء — كالأخشاب والحديد والقصدير والفراء — ليحمله التجار المقبلون من بعيد، مقابل ما يأتون به من قمح وزيت

(١) H. St. L.B. Moss : The birth of the Middle Ages 394-814, (Oxford, 1935), p. 33.

ونسيج وعطور وبخور وبردى ؛ وكلها منتجات شرقية أو إفريقية ، كان تجار المشارقة يحملونها إلى ثغور الغرب .

وقد قام بعبء هذه الملاحة البحرية أهل سواحل الشام ، وهم المعروفون فى نصوص ذلك العصر بالسوريين Syrie ، فقد كانوا على طول الأعصر الرومانية ، وحتى منتصف القرن السابع الميلادى ، حملة النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانى هذا البحر وفى الكثير من البلاد الهامة فى الداخل ، وقامت هذه الجاليات حتى فى ثغور بريطانيا وغالة وإسبانيا ، بل فى الثغور النهرية على الدانوب . وكانت هذه الجاليات السورية كثيرة العدد عظيمة الثروة ، فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة (نربون) مثلا كانوا يتكونون من الرومان واليهود والإغريق والسوريين [١] ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غالة وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصور ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم « المشارقة » إلى جانب اليهود والإغريق ، وبين أيدينا نص يرجع تاريخه إلى حوالى ٥٧٠ ميلادية ، يذكر وفود عدد عظيم من تجار الإغريق والمشارقة على ماردة Emerita فى البرتغال الحالية [٢] .

وشارك السوريين فى القيام بعبء التجارة البحرية الإغريق واليهود ، فأما الأولون فنجدهم دائماً مذكورين إلى جوار السوريين ، أى أن جالياتهم الكبيرة كانت فى الثغور البحرية لغرب البحر الأبيض ، وأما اليهود فقد توغلوا فى الأرض وكثرت أعدادهم فى مدن الداخل أيضاً ، وكان لهم مركز كبير رئيسى فى مرسيليا ، ومنه كانوا ينتشرون فى حوض الرون وبلاد وسط غالة وشمالها مثل باريس

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 63.

(٢) H. Pirenne, op. cit. pp. 62-63.

P. Charlesworth : Trade-routes and Commerce of the Roman Empire, (Cambridge, 2d. ed., 1926).

P. Scheffer - Boichorst : Zur Geschichte der Syrer im Abendlande ds. Mitteilungen des Oesterreichischen Institut fur Geschichtforschung. Band VI, 1885, S. 521 ff.

L. Brehier : Les colonies d'Orientaux en Occident au commencement du Moyen - Age dans Byzant. Zeitschr. t. XII, 1933, pp. 1399.

وأورليان وكليرمون وتوروبورج وآرل . وقام اليهود بمهمة أخرى فى هذا الميدان : هى المتاجرة بين بلاد الداخل والانتقال بالمتاجر من مكان لمكان ، فكانوا — لهذا يوجدون فى كل المدن والمواضع الواقعة على الطرق البرية ، وكانت لهم لهذا السبب علاقات موصولة مع أهل البلاد ، وخاصة الملوك والأشراف والنبلاء ، وكانوا يحاولون الإقامة فى البلاد والاختلاط بأهلها ويجتهدون فى حصر أمور المال بين أيديهم ، وكان الناس ينفرون منهم ومن أساليبهم ، وكانت الكنيسة تجتهد فى تحويلهم إلى المسيحية ، وقد تحول إليها الكثيرون منهم بالفعل [١] ، ولكن بقيت منهم دائماً جماعات ظلت محتفظة بعقيدتها وطابعها ، مسيطرة على شؤون التجارة والمال فى عالم كان الطابع الزراعى يغلب عليه شيئاً فشيئاً .

وإلى جانب السوريين واليهود والإغريق ، يذكر « پيرين » أنه كانت هناك من غير شك جماعات من الأفارقة (يريد المغاربة) يعملون فى نقل البضائع من إفريقية إلى ثغور غالة ، تسميهم المراجع « تجار من وراء البحر transmarini Negociatores » ورد ذكرهم عند كاسيود وروس وفى قانون القوط الغربيين Liber Judiciorum Wisigoticorum ؛ وكانت قرطاچنة مدينة كبيرة ومرحلة يريح فيها التجار القاصدون إلى المشرق . ومن المحتمل أن تكون الجمال التى كانت تستعمل كدواب حمل فى غالة إذ ذاك قد أتت منها [٢] .

وبفضل هذه الأجناس الأربعة المتاجرة : السوريين واليهود والإغريق والمغاربة ، ظل النشاط التجارى قائماً فى البحر الأبيض إلى نهاية القرن السابع الميلادى . كانت الحركة التجارية مستمرة بين ثغور البحر الأبيض فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكانت البضائع التى تحمل إلى موانى هذا البحر شرقية ؛ وقد أورد « هنرى پيرين » قائمة بأصناف من البضائع نص عليها مرسوم ملكى أصدره شيلبيريك Chilpéric الثانى من ملوك الميروڤنچيين إلى كنيسة كوربى Corbie فى ٢٩ أبريل ٧١٦ يعفيها من دفع الرسوم المقررة عليها ،

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 16.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 68.

وهذه الأصناف هى :

١٠٠٠٠	»	»	رطل من الزيت
٣٠	»	»	الجاروم (صنف من الطعام)
٣٠	»	»	الفلفل
١٥٠	»	»	الكمون
٢	»	»	القرنفل
١	»	»	القرفة
٢	»	»	nard
٣٠	»	»	الكوستوم ، نبات عطرى
٥٠	»	»	البلح
١٠٠	»	»	التين
١٠٠	»	»	اللوز
٣٠	»	»	الفستق
١٠٠	»	»	الزيتون
٣٠	»	»	الهيدريو ، نوع من العطور
١٥٠	»	»	الحمص الشامى
٢٠	»	»	الأرز
١٠	»	»	الفلفل الأحمر
١٠	»	»	معالجة بالزيت
٥٠	ذراعا من البردى [١]		

والغالبية العظمى من هذه الأصناف واردة من الشرق أو إفريقية ، مما يعطينا فكرة واضحة بعض الشىء عن أصناف المتاجر التى كانت السفن تنتقل بها بين موانى البحر الأبيض وبلاد الدولة الرومانية فى غرب أوربا .

والنصوص كلها تنطق بأن نشاط هذه التجارة كان عظيما ، وأنها كانت

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 71-72.

وراجع تعليقات بيرين على هذه الأصناف ومغزاها ، ص ٧٠ — ٧١ من كتابه الآنف الذكر .

تصل حتى مدائن حوض الرين الأدنى وبلچيكا وحوض الموزيل ، وأن سفن المشارقة كانت تحملها إلى موانى البحر الأبيض ، حيث تقوم الجاليات الشرقية بحملها والانتقال بها من مكان لمكان . ولدينا ما يدل على أن أرباح التجار منها كانت عظيمة تغريهم باحتمال ما عسى أن يتعرضوا له من المخاطر فى سبيل نقلها .

وقد تبين هنرى بيرين من أبحاثه فى هذا الموضوع ، أن أهم ما كان التجار يحرصون على نقله من البضائع الشرقية كان ثلاثة أشياء : أولها التوابل ، وخاصة الفلفل ، فقد كان الناس لا يستغنون عنه فى تهيئة طعامهم ، وكان المتطببون فى تلك الأيام يستعملونه دواء أو يدخلونه فى مركباتهم الطبية ، والشيء الثانى كان ورق البردى ، وكانت مصر مصدره الوحيد ، وكان البردى فى ذلك الحين هو المستعمل للكتابة عامة ، أما الرق (البرشمان) فكان لا يستعمل إلا فى كتابات الترف ، وكانت إدارات الدول فى حاجة إلى مقادير كبيرة من البردى وكذلك كان عامة الناس ، وإذا ذكرنا أن ديراً واحداً هو دير « كوربى » الذى ذكرناه كان يستهلك فى العام خمسين ذراعاً من البردى ، تصورنا مقادير البردى التى كانت تستنفدها بلاد غربى أوروبا فى ذلك الحين . وكان البردى يستعمل فى أغراض أخرى غير الكتابة : كانوا يدخلونه فى تركيب ذبالات مصابيح الزيت ، وكانت مقاديره فى كل بلاد غربى أوروبا من الكثرة بحيث كان الناس يلتمسون ما يحتاجون إليه منه فى الدكاكين دون مشقة . أى أن البردى كان يصدر من الإسكندرية فى مقادير كبيرة وبطريقة منتظمة ، وكانت مرسيليا ميناءه الكبرى فى أوروبا ، فكان تجار هذا الثغر يودعونه مخازنهم ليحمله التجار بعد ذلك إلى إيطاليا وغالة وإسبانيا وغيرها من بلاد غربى أوروبا ، والصنف الثالث هو الزيت ، وكان الناس فى غربى أوروبا كله يطهون به طعامهم ويستعملونه للمصابيح فى البيوت والكنائس . ولم تكن مقادير الزيت فى أوروبا بكافية ، فكانت تستورد منه مقادير ضخمة من بلاد المغرب خاصة ، وكان ينقل فى دنان كبيرة على ظهور المراكب . وقد لاحظ هنرى بيرين بهذه المناسبة أن النصوص تذكر أن بعض هذا الزيت وبضائع أخرى كانت تنتقل فى بعض نواحى إسبانيا وغالة الجنوبية على ظهور الجمال ، واستنتج أن هذه الجمال هى

الأخرى كانت تستورد من المغرب .

ويوجز پيرين كلامه عن نشاط حركة التجارة البحرية بين البلاد الشرقية ونواحي غربي أوروپا بقوله : « . . من ذلك كله يتبين بصورة واضحة أنه كانت هناك حركة تجارية بحرية واسعة النشاط بين شواطىء البحر التيرانى وبين المشرق وسواحل المغرب . ويبدو أن قرطاچنة كانت همزة الوصل للتجارة مع المشرق . وكانت هناك ملاحة فرعية لنقل المتاجر بين موانى إيطاليا وپروڤانس وإسبانيا ، وكان أهل الشمال الذاهبون إلى روما يركبون السفن فى مرسيليا فتنقلهم إلى پورتو Porto على مصب التيبر . وكان الذاهبون إلى القسطنطينية يذهبون إليها بحراً ، لأن طريق البركان مهدداً بجماعات المتبربرين ، ولهذا انصرف الناس عنه . وكانت هناك سفن منتظمة بين راڤنا وبارى ، وربما كانت هناك ملاحة منتظمة بين مرسيليا وإسبانيا شبيهة بملاحة نقل البضائع ، وذلك يمكن استنتاجه من قول جريجوريوس التورى : negatio solito فى بعض كتاباته . وأظن أننا نستطيع القول إن الملاحة ظلت فى هذه النواحى على مثل ما كان من نشاطها أيام « الإمبراطورية » على أقل تقدير .

« وكانت البحار آمنة ، إذ أننا لم نعد نسمع عن القرصنة بعد أيام جايسريك الوندالى ، ومن البين الواضح أن تلك التجارة التى انصرف الناس إلى العناية بأمرها كانت تجارة جملة ، ومن المستحيل أن نشك فى ذلك إذا ذكرنا نوع تلك البضائع المستوردة وانتظامها والمكاسب الوافرة التى كان التجار يجمعونها منها . والميناء الوحيد الذى لدينا عنه معلومات وافرة هو مرسيليا ، ويتجلى من النصوص أنه كان ميناء كبيراً . ومن دلائل أهميته ما نرى من رغبة الملوك فى الاستحواذ عليه فى مناسبات تقسيم المملكة (الفرنجية) . كانت بلداً عالمياً يضم أعداداً كبيرة من اليهود السوريين ، إلى من كان فيه من الإغريق والقوط دون شك ... ولا بد أن البلد كان وافر السكان ، ولا بد كذلك أنه احتفظ بمنازله الكبيرة ذات الطبقات التى تشبه تلك التى لا زالت أطلالها باقية إلى الآن فى أوستيا . . » [١] .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 72-78.

وطبيعى أننا لا نستطيع القول بأن أولئك التجار المشارقة — يهوداً وغير يهود — (المقيمين فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى) قد اقتصر عملهم على الاستيراد دون التصدير ، إذ من الواضح أن سفنهم كانت تحمل بضائع أخرى لدى عودتها ، وأهم ما كانت تحمله الرقيق ، ومن المعروف أى رقيق الخدمة فى البيوت والمزارع كانوا كثيرين جداً بعد القرن الخامس ، ويغلب على ظنى أن الغزوات الجرمانية زادت تجارة الرقيق نشاطاً وتجارها غنما ، فقد عرف الجرمان الرق كما عرفه الرومان ، ولا بد أنهم أتوا معهم بأعداد كثيرة من الرقيق ، وأعانت الحروب مع المتبربرين فيما وراء الرين ومع اللومبارد على اتساع مدى الرق ؛ وإذا كانت الكنيسة قد رفعت من منزلة الرقيق بالسماح لهم بحضور القداس ، واعترفت لهم بالحق فى الزواج ، أو بعبارة أدق : بإلزامهم به ، فإنها — من حيث المبدأ لم تستنكر ولم تعترض على مبدأ الاسترقاق . ولهذا كان الرقيق يوجدون فى كل مكان ، لا فى الضياع الكبيرة وحدها بل لدى جميع الأفراد الميسورين . نعم إن الناس كانوا يعتقون الكثيرين منهم ، ولكن بقيت أعداد وفيرة دائماً ، وكانت هذه الأعداد تزيد بواردات جديدة منهم » (١) .

وقد أورد بيرين تفاصيل كثيرة عن تجارة الرقيق هذه ، وأثبت أن تجار المسيحيين الغربيين كانوا يقومون بغارات على بلاد الروس والوند ليحصلوا على الرقيق والفراء ويتاجرون فيه دون حرج ، لأن الكنيسة لم تكن تحرم بيع الرقيق لتجار من خارج العالم المسيحى إلا إذا كان الرقيق مسيحياً . وأثبت كذلك أن جريجورى الكبير اشترى سنة ٥٩٥ عدداً من الرقيق الإنجليز من مرسيليا وبعث بهم إلى روما لينصرهم فيها ، وأتى بنصوص أخرى من كتابات جريجوريوس التورى وفريجيداريوس ، ومن ذلك أن بيليشيلديس Bilichildis التى تزوجها الملك تيودبرت — كانت أول الأمر جارية اشترتها برونهاوت بسبب جمالها الظاهر ، أى أن ملوك العالم النصرانى كانوا إذ ذاك يفعلون ما كان ملوك المسلمين يفعلونه . وأثبت كذلك أنه كانت فى بلاد المسيحية أسواق يباع فيها الرقيق ،

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 79.

وأن أكبر هذه الأسواق كان فى أربونة Narbona ونابلى ، وأن معظم المشتغلين بهذه التجارة كانوا من اليهود ؛ وهو هنا يلتقى بالمؤرخ المعروف راينهارت دوزى فيما ذهب إليه من أن أكبر موردى الرقيق لمسلمى إسبانيا كانوا من اليهود ، وأنه كانت لهم فى أربونة هذه مواضع يقومون فيها بخصاء أعداد من هؤلاء المساكين لبيعهم للمسلمين خصياناً بعد ذلك [١] .

وبعد الاستشهاد بأمثلة كثيرة ، خرج بيرين بأن التجارة كانت على نشاط وافر فى غربى أوروبا حتى نهاية العصر الميروفنجى ، وأن التجار كانوا يعتمدون فى هذا النشاط على ما يرد إليهم من بضائع المشرق والشمال الإفريقى إلى جانب ما كانوا يتجرون فيه من محصولات بلادهم ومنتجاتهم كالنبيذ والغراء ، وأن التجار كانوا كثيرين استطاع بعضهم أن يجمع ثروات عريضة ، بل كان بعضهم يقرض الملوك المال فى بعض الأحيان[٢] ، وأنهم كانوا تجاراً أحراراً أى لا تقيدهم نظم نقابات أو أثقال من الدولة ، وأنهم كانوا يوجدون فى كل البلاد الهامة فى إيطاليا وغالة وبلاد الرين ، وأنهم كانوا يسكنون داخل المدن وفى قصباتها oppidum livitatis بالذات ، ويتخذون الدكاكين الصغيرة والكبيرة فى شوارع طويلة ذات بواك فى كثير من الأحيان ، كما فى مدينتى Meaux فى شمالى غالة وفى باريس [٣] .

ومن الطبيعى أن التجارة فى غربى أوروبا لا تنشط هذا النشاط دون عملة معدنية يعرفها التجار ويتبادلون البضائع على أساسها ، وقد كانت هذه العملة

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 79-81.

ويفهم من بعض النصوص التى أوردها نقلا أن الرقيق الذين وجدوا فى غربى أوروبا فى ذلك الحين لم يكونوا من الصقالبة والوند فقط ، بل كان فيهم غاليون وبريطانيون وسكسون ومغاربة . انظر ص ٨١ وهوامشها والمراجع المذكورة فيها . وكان الرقيق يذكرون عادة فى النصوص تحت بند البهائم de bestus تارة والأشياء تارة أخرى ، فيقال مثلا فى بعض اللوائح الجمركية

Si servus vel ancilla vel auri uncia vendantur

انظر هامش ٧ من ص ٨٠ من كتاب بيرين المذكور .

(٢) انظر النص اللاتينى الذى يورده بيرين فى ص ٨٢ من كتابه المشار إليه .

(٣) بيرين ، ص ٨٥ . وانظر النصوص التى ينقلها عن جريجوريوس التورى على هذه الصفحة وهوامشها .

على أيام الغزوات الجرمانية هى الصولدى الرومانى Solidus كما حدد وزنه وثبته قسطنطين الكبير ، وقد ظل هذا الصولدى أساس التعامل حتى منتصف القرن السابع الميلادى دون أن يغير ملوك الجرمان من وزنه أو قيمته أو رسمه شيئاً ، بل مضى هؤلاء الملوك يسكونه بنفس الطرة التى وجدوها عليه عند ما أقاموا دولهم ، ولم تتغير هذه الطرة إلا على أيام الملك الميروڤنجى كلوتير الثانى (٥٨٤ ٥٢٩ أو ٥٣٠) ، ولم يكن التغيير إلا جزئياً فاستبدلت عبارة Victoria Augustorum بعبارة Victoria Chlotarii .

ولقد كانت عملة الدولة الرومانية من معدن واحد ، هو الذهب ، فلم تسك فيها عملة الفضة أو البرونز ، وقد حافظ ملوك الجرمان على هذه القاعدة ، فلم يسكوا عملة الفضة إلا فى بعض الممالك الأنجلو سكسونية فى الجزر البريطانية ، فقد سك ملوك مرسيا مثلا عملة فضية ، أما عند الفرنجة والقوط الغربيين والقوط الشرقيين والوندال فلم يكن هناك إلا ذلك الصلدى الرومانى بوزنه المعروف . بيد أن بعض الميروڤنجيين أنقص وزنه من ٢٤ جراماً إلى ٢١ ، وذلك هو الصلدى الغالى Solidi Gallicani ؛ وقد كان هذا الصلدى يسك تحت إشراف الدولة ، ولهذا كان عياره يوصف بأنه « عيار الخزانة » ratio fisci أو عيار الحاكم[١] ratio domini . وقد سك الأساقفة الصولدى تحت إشرافهم ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بإذن من الملوك أو بدون إذن ، ولكن الثابت أن وزنه كان صحيحاً [٢] .

وهذه الحقيقة تدل على أمرين : أولهما أن الوحدة الاقتصادية لحوض البحر الأبيض ظلت قائمة بعد غزوات المتبربرين كما كانت عليه قبل دخولهم ، « وحتى حلول الكارثة التى ألمت بغربى أوروپا من أول العصر الكارولنجى ، ظل الجزء الشرقى — أى الإغريقى — من الدولة والجزء الغربى — الذى أغار عليه الجرمان — يتعاملان بالعملة الواحدة التى كانت أساس التعامل على أيام الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر إيجه . بل إن ملوك المتبربرين أدخلوا على

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ — ٩٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون ، فقد أدخل هؤلاء الأخيرون مثلا رسم الصليب على الصولدى ابتداء من القرن السادس ، فحذت دار السكة فى مرسيليا حذوهم فى ذلك ، وتبعها فى ذلك دور السكة فى شتى نواحى غربى أوروبا »[١] .

أى أن وحدة البحر الأبيض ظلت قائمة فى الناحية الاقتصادية كما ظلت فى النواحى الأخرى التى بيناها .

وقد لخص هنرى بيرين هذا الكلام كله — عن بناء وحدة البحر الأبيض حتى دخول الإسلام — فى كتاب آخر من كتبه بقوله : « ومن الزاوية التى يتعين علينا النظر منها هنا ، يبدو لنا لأول وهلة أن ممالك المتبربرين التى قامت فى أوروبا فى القرن الخامس قد احتفظت بذلك الطابع البحرى المتوسطى الذى يعتبر أوضح وأهم أسس الحضارة القديمة . فإن ذلك البحر الأبيض ، ذلك البحر الداخلى الذى ولدت على ضفافه حضارات العالم القديم جميعاً ، واتصلت بعضها ببعض عن طريقه ، والذى كان الوسيلة التى انتقلت عن طريقها الأفكار والمتاجر فيما بين أرجائه ، والذى كانت الإمبراطورية الرومانية قد ضمت أطرافه جميعاً ، والذى اتجه نحوه نشاط ولاياتها جميعاً من بريطانيا إلى الفرات ، لم يتوقف بعد الغزوات الجرمانية عن القيام بدوره التقليدى ، وظل — عند المتبربرين الذين استقروا فى إيطاليا وإفريقية وإسبانيا وغالة — طريق الاتصال الرئيسى مع الإمبراطورية البيزنطية . وسمحت العلاقات التى ظلت قائمة بينهم وبين هذه الإمبراطورية باستمرار الحياة الاقتصادية التى لم تكن إلا استمراراً مباشراً لما كان الحال عليه فى العصور القديمة . ويكفى أن نذكر هنا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائماً فيما بين القرنين الخامس والثامن بين ثغور حوض البحر الأبيض الغربى وثغور مصر وآسيا الصغرى ، واحتفاظ ملوك الجرمان بالصولدى الرومانى وهو يعتبر أداة الوحدة الاقتصادية لهذا البحر ورمزها القائم ، ويكفى كذلك أن نذكر اتجاه التجارة العام نحو شواطىء هذا البحر الذى ظل الناس يتحدثون عنه

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

بقولهم : « بحرنا Mare nostrum » وحقهم فى ذلك القول لا يقل عن حق الرومان فيه » (١) .

جـ — الناحية الثقافية للبحر الأبيض قبل الإسلام :

وهذا الكلام يصدق عن الثقافة التى سادت شواطئ هذا البحر بعد استقرار الجرمان فى مواطنهم فى وسط أوروبا وغربيها واقتصار الدولة البيزنطية على الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية القديمة . هنا أيضاً نجد أنفسنا فى جو فكرى لاتينى متجانس ؛ إنه ليس الجو السامق الذى عرفه الفكر اللاتينى على أيام شيشيرون وأوڤيد وفرجيل ، ولكنه حطام ذلك الفكر بقيت بعد طوفان الانحلال السياسى والفوضى الاقتصادية واختلال الأمور الذى شمل العالم الرومانى ابتداء من القرن الثالث الميلادى .

حقيقة أنه جد على الفكر والفن عامل جديد غير اتجاهه وروحه تغييراً حاسماً وهو المسيحية ، ولكن المفكرين وأهل الفن الذين حاولوا أن ينتجوا شيئاً فى ذلك المحيط اللاتينى الجرمانى المسيحى الجديد نظروا إلى الأصول اللاتينية القديمة وحاولوا أن يصوغوا إنتاجهم فى قوالبها ، لقد تحقق فشل الفكر اللاتينى الوثنى فى القضاء على الفكر المسيحى الوليد عند ما فشلت محاولة « يليان المرتد » فى إعادة الوثنية إلى الحياة ، ولكن هزيمة الوثنية لم يكن معناها هزيمة اللاتينية ، وإنما كان معناها اضطرار اللاتينية إلى أخذ الطابع المسيحى ووضع نفسها فى خدمته ، ومن هنا أخذت اللغة اللاتينية والفكر اللاتينى يتحولان إلى لغة مسيحية وفكر مسيحى ، بالضبط كما تحولت الدولة الرومانية بعد تجارب طويلة إلى دولة رومانية مسيحية أو مقدسة . بل إننا نلاحظ أن الكثيرين من رجال الفكر الأوروبى — فيما بين القرنين الثالث والخامس — يحاولون أن يطوعوا تفكيرهم الوثنى

(١) Henri Pirenne, Gustave Cohen et Henri Focillon: Histoire du Moyen-Age, t. VIII : La Civilisation Occidentale au Moyen-Age du XIe. au Milieu du XVe. Siécle, (Histoire Générale). Paris, 1933. pp. 7-8.

وسأكتفى فى الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة Civilisation Occidentale فيما يلى من هذا البحث .

وبلاغتهم القديمة للدين الجديد ، فيوفقون أحياناً ويخطئهم التوفيق أحياناً أخرى ؛ ويكفى أن نذكر أسماء كلوديوس وسيدونيوس أبوليناريوس وڤلاڤيوس ميروباودوس Merobaudus وغيرهم [١] .

وعند ما نتأمل قصور ملوك جرمان — من أمثال ثيودوريك وكلوڤيس — نجدها محاكاة لقصور أباطرة الرومان وحواشيهم ، ونجد كتابهم ومؤدبيهم ورجال دولتهم لاتيناً أو ناسجين على المنوال اللاتينى ، لأن الجرمان لم يأتوا معهم بفكر أو فن ، فلم يكن لهم مفر من أن يتزودوا فى ذلك الميدان بما بقى من عناصر الفكر والفن اللاتينيين الذاهبين ، لا يكاد يشذ عن ذلك إلا الأنجلو سكسون ، ولفترة قصيرة من الزمن مع ذلك [٢] . وأظهر مثال لهذا بلاط ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، حيث نجد رجالا ذوى فكر لاتينى خالص — من أمثال بويثيوس Boethius وكاسيودوروس Cassiodorus — يضعون للدولة الجرمانية الناشئة أصولا فى الإنشاء والتفكير مستقاة من البلاغة اللاتينية فى عصرها الفضى ، ونجد شعراء من أمثال إلبيديوس Elpidius الذى كتب مدحة للمسيح عنوانها Carmen de Christi Jesu Beneficii على غرار الشعر اللاتينى من كل ناحية . هذا وقد كانت مدارس البلاغة اللاتينية زاهرة إذ ذاك ، يتعلم فيها المسيحيون من أهل الدين وغيرهم أساليب الترسيل والإنشاء والتفكير على الأسس اللاتينية .

وهذا الكلام ينطبق على الممالك الجرمانية كلها ، يسود ميادين الفكر فيها الطابع اللاتينى ، بل إن من قصد إلى شىء من الكتابة من ملوك الجرمان مثل وامبا وسيسيبوت Sisibut وتشنداسڤنت Chindaswinth وشنتيلا Chintila كتبوا باللاتينية ؛ وفى الطرف الأقصى الغربى لأوروبا نجد إيزودور الإشبيلى Isidiro de Sevilla يكتب بروح مسيحية فى لغة

---

(١) يذكر إيبرت أن هؤلاء الأدباء لم يكونوا مسيحيين إلا اسما :
Cf. : Ebert : Hist. de la litterature latine du Moyen-Age. t. 1, p. 445.

(٢) H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, p. 102.

لاتينية بليغة [١] .

فإذا انتقلنا إلى الجزء الشرقى للعالم الرومانى — العالم البيزنطى أقصد — وجدنا الفكر المسيحى الوليد يطسير أيضاً فى آثار الفكر الوثنى القديم ، مع اختلاف فى القالب لا فى الطبيعة ؛ فقد كان الفكر قد ظل فى ذلك القسم الشرقى وثيق الصلة بالأصول الإغريقية القديمة ، وكانت الإغريقية هى اللغة التى كتب بها كتاب الدولة البيزنطية ، إذا استثنينا الفترة الجستنيانية التى أطلعت كتاباً من أهل ذلك العالم الإغريقى يكتبون باللاتينية ، من أمثال بروكوبيوس مؤرخ عصر جستنيان . وفيما خلا ذلك نجد الفكر البيزنطى — حتى عصر هرقل — يدرج على منهاج الإغريق القدماء .

ولقد حاول نفر من أوائل الكتاب البيزنطيين خلال القرن الرابع أن يبغض إلى الناس الفكر الوثنى وأساليبه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، وانتهى الأمر إلى تطويع ذلك الفكر الإغريقى للروح المسيحى الجديد كما حدث فى الغرب من تطويع التقاليد الفكرية اللاتينية للروح المسيحى الجديد . وفى نفس المدارس الوثنية التى تخرج فيها أعلام الفكر الوثنى قبل القرن الرابع المسيحى تعلم كتاب الكنيسة الشرقية فنون القول والمنطق والتفكير — بل اختلط الفكران الوثنى والمسيحى إلى درجة جعلت الكنيسة الشرقية تنظر إلى مفكر لاهوتى مثل أوريجانس المصرى نظرتها إلى وثنى أو منحرف عن الطريق السليم ، وذلك لغلبة الثقافة الإغريقية الوثنية على تفكيره .

وقد بدأت المصالحة بين الفكر الوثنى والروح المسيحى فى أيام قسطنطين الكبير ، ومن هنا « لم تختف طلاوة الفكر الإغريقى ونفاذه ، بل فتحا لنشاطهما ميداناً جديداً ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليونانى من ميدان الفلسفة الوثنية إلى ميدان اللاهوت المسيحى ، وإلى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركه القديمة » [٢] . وفى كل ناحية من نواحى الإنتاج الفكرى البيزنطى ،

---

(١) يذهب مانيتيوس إلى أن القوط الغربيين كانوا أوفر من غيرهم نصيباً من الثقافة اللاتينية :
Cf. Manitius : Geschichte der Christlichlateinische Poesie, p. 402.

(٢) F.H. Marshall : Byzantine Literature apud Norman H. Baynes and H. St. L.B. Moss, Byzantium (Oxford, 1948) p. 222.

نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحي ، والمسافة قريبة جداً بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس الكاتب المسيحي الذي تغنى بمدائح جستنيان حيناً وأسرف في ذكر مساوئه حيناً آخر . .

« وفي مصر المسيحية نشأت « فلسفة » مسيحية تضرب على منهاج الوثنية القديمة هي فلسفة الرهبان المسيحيين ، وأعظم الآثار الأدبية لهؤلاء الرهبان المصريين — وهو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي ألفه الأنبا أثناسيوس المصري — كان معتبراً أصلا من الأصول الثابتة التي تقرأ في العالم المسيحي كله : في لغته اليونانية في الشرق وفي ترجمته اللاتينية في الغرب . . . وكانت « الأفلاطونية الحديثة » ذات أثر عظيم ظاهر في كتابات جريجوريوس النازنيزي وجريجوريوس النيسي أكبر كتاب الآباء القبدوكيين . . بل أصبح الفكر الأفلاطوني الحديث جزءاً من اللاهوت الأرثوذكسي في الكنيسة الشرقية . . وهذا الطور ملحوظ لا يخفى في كل فروع الأدب البيزنطي . . وإذا كانت المقطعات الشعرية الوثنية قد اختفت ، فقد حرص أصحاب المقطعات الشعرية المسيحية على النسج على منوالها » ، كما نرى في التشابه العظيم بين شعر الشاعر الوثني نونوس Nonnus الذي عاش في القرن الخامس وشعر جورج البيزيدي شاعر بلاط هرقل الكبير الذي تغنى بانتصاره على الفرس (١) .

بل إن الفكر السرياني الذي بلغ أوجه في القرن السادس كان يحمل بوضوح طابع الفكر الإغريقي القديم ، ففي ذلك العصر نجم أعلام كتاب السريان من أمثال يعقوب السروجي وفيلوكسين المنبجي ويوحنا الإفيسوسي ويعقوب البردعي ، وكلهم كتاب سريان مسيحيون نهجوا في تفكيرهم وإنشائهم على نهج قدماء الإغريق وفلاسفتهم (٢) . ولقد أطلعت سوريا إلى جانب هؤلاء نفراً من أعلام الفكر اليوناني المسيحي من أمثال بروكوبيوس الذي ذكرناه —

---

(١) F.H. Marshall, op. cit. pp. 224-225.

(٢) A.A. Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin, (Paris, 1932), Vol. 1, p. 234-235

وهو من قيصرية الشام — ويوحنا مالالاس — وهو أنطاكى — وبروكوبيوس الغزى ودوروتيوس وأناتوليوس القانونيين ، وهما من تلاميذ مدرسة بيروت (Beryta) ، هذا إلى ما نعرفه من أن مدارس الطب في الرها وحران وأنطاكية كانت تقوم على ترجمات سريانية لمؤلفات أطباء الإغريق [١] .

وقد أجمل هنرى پيرين ما قلناه عن الثقافة فى غربى أوروبا بعد الغزوات الجرمانية بقوله : « . . وعلى الجملة فإن الغزوات (الجرمانية) لم تغير طابع الحياة الثقافية فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، فمضى الأدب فى طريقه ، وإذا كنا لا نملك أن نقول إنه كان زاهراً فإننا نستطيع أن نقول إنه ظل فى قيد الوجود فى روما ونابلى وقرطاچنة وطليطلة وغالة ، دون أن يجد عليه جديد ، حتى جاء ذلك الحين الذى بدأت تظهر آثار الأنجلو سكسون فيه . وليس هناك شك فى أن اضمحلاله كان ظاهراً ، ولكن تقاليده ظلت قائمة . وإذا كان هناك كتاب لاتينى وجدوا فإن هذا ليدل على أنه كان هناك أيضاً جمهور يقرأ ما كانوا يكتبون ، أى جمهور متعلم نسبياً (يقرأ اللاتينية) . وقد مضى الشعراء يخلعون على ملوك الجرمان نفس الأوصاف المبالغ فيها التى كانوا يضفونها على الأباطرة ؛ نعم إنهم كانوا أقل مستوى ، إلا أنهم كانوا يكررون نفس المعانى . ولقد استمرت هذه الحياة الفكرية القديمة قائمة حتى القرن السابع الميلادى ، بدليل أننا نجد البابا جريجورى الكبير يلوم ديديييه Didier على انصرافه إلى النحو دون سواه ، وأننا نلتقى فى إسبانيا مؤرخين لا بأس بهم حتى الفتح العربى . وفى ذلك الميدان كله لم يأت الجرمان بأى جديد » [٢] .

وهذا الذى يقوله پيرين عن الحياة الثقافية فى غرب البحر الأبيض ينطبق — مع خلاف طفيف — على حوضه الشرقى كما رأينا : استمرت الحياة الفكرية فى القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب فى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه قبل انتشار المسيحية ، بحيث نستطيع أن نقول إن حوض البحر

---

(١) Ch. Diehl et George Marçais : Le Monde Orientale de 395 à 1081, (Paris, 1944) p. 115.

(٢) H. Pirenne : Mahomet et Charlemagne, p. 106.

الأبيض كله كانت تسوده قبيل الفتح الإسلامى ثقافة إغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحى دون أن يتغير روحها العام كثيراً .

٢

الإسلام فى حوض البحر الأبيض

ا ــ المسلمون يدخلون حوض البحر الأبيض :

فى السنة الثامنة للهجرة ، وبينما كان الرسول (صلعم) يتأهب لفتح مكة ، رأى أن يبعث بعثاً من المسلمين إلى بلاد الغساسنة الذين قتلوا رسوله الذى بعثه إليهم قبل ذلك بقليل ، وليضع يده على مؤتة ، وكان أهلها يصنعون صنفاً ممتازاً من السيوف يعرف فى النصوص العربية بالسيوف المشرفية . ولم توفق هذه الحملة فيما قصدت إليه ، لأن الحامية البيزنطية المعسكرة وراء الأردن ، يؤيدها عدد من قبائل عرب الشام الموالية للروم ، ففرت للقاء المسلمين ــ وكان عددهم ثلاثة آلاف يقودهم زيد بن حارثة ــ وأنزلت برجالها هزيمة شديدة ، وقتل قائدها زيد وخلفه جعفر بن أبى طالب فعبد الله بن رواحة فقتلا ، ولم تنج بقية البعث الإسلامى إلا بفضل مهارة خالد بن الوليد ، فقد عرف كيف ينسحب ببقية المسلمين عائداً إلى المدينة [١] . وكان هذا أول لقاء بين الإسلام وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وهو لقاء لا ينبئ بما كان بعد ذلك من غلبة المسلمين على شواطئ ذلك البحر ، ولكنه يدل على أى حال على اتجاه نظر الرسول إلى الشمال ، وإلى أن الامتداد خارج الجزيرة العربية كان فى حسابه قبل فتح مكة.

وقد ختم الرسول أعماله العسكرية بغزوة « تبوك » عام ٩ للهجرة ، وهى غزوة يسيرة لم يحدث فيها قتال خلا ما كان من سير خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وأسره صاحبها [٢] ، ولكنها عظيمة الدلالة ، فهى آخر خطوات التوسع الإسلامى

---

(١) ابن الأثير : الكامل (المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٩) ج ٢ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩١ .

فى حياة الرسول ، وهى كالإشارة إلى الطريق الذى تعين على خلفائه اتباعه فى السير براية الإسلام ، ومصداق ذلك أن الرسول لم يقنع بالنتيجة التى وصل إليها من مسيره إلى تبوك ، ورأى معاودة الكرة وأعد حملة جديدة قرر تسييرها إلى الشام وجعل عليها أسامة بن زيد بن حارثة الذى قتل فى غزوة مؤتة ، ولكن الوفاة أعجلته عن إنفاذها . وتولى أبو بكر فرأى أن يكمل ما بدأ به الرسول من تسيير بعث أسامة بن زيد ، ولكن حروب الردة شغلته عن ذلك [١] ، فلم يستطع توجيه الجند المسلمين نحو الشام إلا بعد الفراغ من أمر المرتدين .

ففى أوائل صفر سنة ١٣ للهجرة سارت نحو الشمال ثلاثة جيوش إسلامية لا يزيد مجموع رجالها عن ٢٤ ألف مقاتل ، يقودها ثلاثة من شباب قادة المسلمين هم : عمرو بن العاص ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل ابن حسنة ، وأمدهم أبو بكر بنفر بعد نفر من المسلمين . وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح على بعض هذه الإمدادات ، واستطاع أولئك القادة — بمعاونة خالد بن الوليد الذى خف لعونهم من العراق — أن يتموا فتح الشام فى سنتين (٦٣٤ — ٦٣٦) ، واستقر عامل المسلمين فى دمشق مكان عامل البيزنطيين ، واستولى المسلمون على ساحل البحر الأبيض وكبار موانيه حتى أنطاكية فى الشمال ، وكانت أكبر بلاد ساحل الشام وموانيه ، وكان فيها كذلك أعظم بطريركياته مقاماً وأبعدها أثراً فى تاريخ المسيحية فى هذه العصور .

بهذا الفتح دخلت الدولة الإسلامية نطاق البحر الأبيض المتوسط ، ووضعت قدماً ثابتة فى سوريا ، وسيطرت على موانيها ، وكانت أحفل ثغور البحر الأبيض بالتجارة والسفن وأكثرها حيوية ونشاطاً على ما ذكرناه ؛ ودخل فى

---

(١) كان أبو بكر يدرك استحالة إنفاذ بعث أسامة إلى الشام ، ولكنه أصر على تسييره رغم معارضة شديدة من المسلمين ومن عمر بن الخطاب نفسه . وكان غرض أبى بكر أن يشعر العرب أن لديه من القوة ما يسمح له بإنفاذ بعث كبير إلى الشام ، وكان لذلك أثره فى رد الكثيرين منهم عن الارتداد كما قال ابن الأثير نفسه . وقد اختصر أسامة بعثه ، فلم تزد مدته عن أربعين يوماً ، ولم يفعل أكثر من الإغارة على بعض قبائل قضاعة ، والغالب أن ذلك كله كان بالاتفاق مع أبى بكر . انظر : ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

خدمة المسلمين هذا الشعب الذى كان يجمع بين يديه زمام جانب عظيم من النشاط التجارى فى البحر الأبيض .

ب – المسلمون يسيطرون على شواطىء البحر الأبيض فى الشرق والغرب :

وقد رأينا كيف أن الدولة الإسلامية اتجهت نحو البحر الأبيض غداة قيامها ، ولسنا نستطيع تعليل هذا الاندفاع نحو حوض هذا البحر بمجرد الرغبة فى التوسع ونشر الإسلام ، أو أنه كان نتيجة طبيعية لدخول « روم العرب » فى طاعة الإسلام ، لأن العرب اتجهوا لغزو بلاد الدولة الفارسية قبل أن يشرعوا فى فتوح الشام ، ولكنهم لم يبدأوا فى فتوح فارس إلا بعد أن فرغوا من أمر الشام ، وفى نفس الوقت الذى بدأت جيوشهم تلتحم مع جيوش الفرس كان عمرو بن العاص يستأذن عمر بن الخطاب فى المسير لفتح بلد بحرى متوسطى آخر ، هو مصر . أى أن شواطىء البحر الأبيض اجتذبت العرب بنفس القوة التى اجتذبت بها الإغريق القدامى والرومان والجرمان من بعدهم .

وقد استمر الاندفاع الإسلامى نحو شواطىء البحر الأبيض على صورة متصلة النشاط والقوة ، لم تتوقف إلا أمام العقبات المانعة التى استحال عليهم تخطيها بالفعل ، مما يدل على أن دافعاً قوياً كان يدفع المسلمين إلى السيطرة على شواطىء هذا البحر والقبض على نواصيه من الشرق والغرب ، لا يكاد يصرفهم عن إتمام هذه السيطرة شىء . فقد أتم العرب فتح مصر عام ٢٢ هـ ٦٤٢ م باستيلائهم على الإسكندرية ، وكانوا مستطيعين بعد ذلك التصعيد مع مجرى النيل إلى النوبة والسودان ، وكانوا واجدين فى الاتجاه نحو الجنوب بلاداً واسعة وفتوحاً عظيمة القيمة لهم خاصة ، ولكننا نجدهم بدلاً من ذلك يستطردون مع ساحل البحر نحو برقة ، عابرين صحراء واسعة ، مستهدفين لكثير من المخاطر ؛ ونجدهم بعد استيلائهم على برقة يسيرون بحذاء سواحل طرابلس الطويلة حتى يصلوا إلى إفريقية ، وهى ما يعرف اليوم بتونس ، حيث يخوضون معارك حامية تنتهى بسيادتهم على هذا القطر الصغير ؛ ثم يمضون يشقون طريقهم على سواحل المغرب فى عنف وصبر واحتمال مدى سبعين سنة حتى نجدهم عند سبتة عام ٩١هـ.

٧٠٩ م . وبعد هدنة قصيرة يعود البحر الأبيض فيجذبهم من جديد فيعبرون إلى الأندلس ، وفى أقل من عامين نجدهم عند جبال البرتات ، وهى المعروفة خطأ بالبرانس ؛ ثم يسترسلون مرة أخرى فى حماس وحمية ، فيحتلون شواطئ پروڤانس حتى مصب الرون ، ويتخذون بلدة أربونة Narbona مركزاً لهم ، وينتقل مركز النشاط الإسلامى كله إلى هذه الناحية خلال عصر الولاة الأندلسيين ، حتى إن بعضهم كان يقيم فيها دون قرطبة ، ولم يتوقف هذا التدفق العنيف إلا بعد هزيمة بلاط الشهداء فيما بين تور وبواتييه عام ١١٤—٧٣٢ . ويصر المسلمون رغم ذلك على الاستمساك بما بقى فى أيديهم من نواحى غالة الجنوبية ، فلا تسقط أربونه من أيديهم إلا بعد عشرين سنة كلها كفاح وصراع ، ويتشبث المسلمون بعد ذلك بشعاب جبال البرت وما يلاصقها من بلاد الحدود الشمالية الغربية الإيبيرية ، فلا ينتهى أمرهم منها إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى[١] .

وليس بغريب والحالة هذه أن نقرأ فى بعض المراجع أن موسى ابن نصير — عند ما أوغل فى الأندلس — قرر أن يخترق أوروبا مساحلا البحر الأبيض حتى يصل إلى القسطنطينية ، وأن تفكيره هذا روع الخليفة الوليد بن عبد الملك فكتب إليه يستقدمه وينهاه عن « التغرير بالمسلمين » ، ولم ينته المسلمون رغم ذلك ، بل ظلوا يضربون فى طريقهم حتى وجدوا — كما يقول الرازى — حجراً قد نقش عليه : « يا بنى إسماعيل ، انتهيتم فارجعوا » ، وهى رواية أسطورية الطابع ولكنها ذات دلالة نفسية ومعنى لا يخلو من عمق ، وإذا نحن جمعناها إلى الرواية السابقة ؛ وحاولنا تفسيرهما على ضوء الاتجاه العام للفتوح العربية ناحية الغرب ، استطعنا أن نقول إن أمثال هذا الكلام ليست مجرد حديث أساطير ، بل هى تصوير لما كان المسلمون يسعون نحوه عن إحساس واع أو عن نزوع ساذج متأثر بذلك الدافع التاريخى البعيد الذى كان يحرك العرب فى هذا الاتجاه ، دون أن نجد فيما بين أيدينا من المعلومات من خطط الفتوح العربية ما يفسره ويشرحه .

---

(١) المقرى : نفح ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

ج ــ العرب فى جنوبى غالة وبروڤانس :

تعتبر أعمال المسلمين العسكرية شمالى جبال البرت وفى منطقة بروڤانس حلقة متممة لنشاطهم فى حوض البحر الأبيض الغربى ، ولما كانت معلوماتنا قليلة فى هذه الناحية ، فقد رأيت أن أورد موجزاً لنشاط المسلمين فى هذا الميدان

بدأ العرب الامتداد فيما يلى جبال البرت فى ولاية عبد العزيز بن موسى ، فقد استولى المسلمون فى عهده على جرونة Girona وأربونة Narbona سنة ٩٦ــ٧١٥ ثم ارتد المسلمون عنهما ، وعاد السمح بن مالك الخولانى فاستولى عليهما واتجه نحو طولوشة Tolosa ١٠٠ــ٧١٨ ، وعلى مقربة من هذا البلد الأخير التقى بجيش فرنجى يقوده أودون Eude دوق أقطانية Aquitania وانهزم الجيش الإسلامى وقتل السمح نفسه ٨ ذى الحجة ١٠٢ــ٩ يونيو ٧٢١ ، وعاد المسلمون إلى أربونة فتحصنوا بها . ثم نهضوا من جديد يقودهم عنبسة بن سحيم الكلبى خليفة السمح فاستولوا على قرقشونة Carcasona ونيمة Nœmasum ، ثم وصل عنبسة إلى وادى الرون وصعد معه حتى وصل إلى نهر الساءون ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتان Autun ١٠٦ــ٧٢٥ ونهب الإقليم كله دون أن يلقى مقاومة تذكر .

وبعد ذلك بسبع سنوات قام العرب بأقوى حملاتهم فى غالة يقودها عبد الرحمن الغافقى ، وقد بدأ يحشد قواه فى بنبلونة Pampelona فى صيف ١١٣ /٧٣٢ وسار فاستولى على تورو تقدم نحو الشمال ، وعجل بالمسير نحوه شارل مارتل (قارله) فى جيش حافل ، وكان اللقاء الحاسم على ١٧ كيلو متراً شمالى تور عند موضع يغلب على الظن أنه مواسيه لاباتاى Moissais la Bataille الحالى فى منطقة يقع وسطها قصر قديم هو المعروف ببلاط الشهداء فى رمضان ١١٤ــ أكتوبر ٧٣٢ حيث لقيت الجيوش الإسلامية هزيمة كبيرة ، واستشهد الغافقى . ولم تنته جهود المسلمين فيما وراء البرت بعد « بلاط الشهداء » ، إذ ظلت أربونة فى أيديهم واستمر نشاطهم فى الجهاد ، فبعد سنتين من « بلاط الشهداء » ١١٦ــ ٧٣٤ قام يوسف الفهرى عامل الأندلس بغارة كبيرة فى وادى الرون ، وعبر هذا النهر واستولى على آرل وسان ريمى دپروڤانس

Saint Rémyde Provence وصخرة ابنيون Avignon ؛ غير أن شارل مارتل استرد منهم هذا البلد الأخير بمعاونة قوات برغندية ، ثم أقبل يحاصر أربونة ، فسار عامل الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى لنجدة البلد ، ولكنه انهزم سنة ١١٧—٧٣٧ ، وحاصر شارل مارتل أربونة دون توفيق كبير . واستمرت أربونة فى يد العرب حتى سنة ١٣٣—٧٥١ حينما استولى عليها ببين القصير أول ملوك البيت الفرنجى الكارولنجى . وقد بقيت شمال البرت بعد ذلك جماعات كثيرة من المسلمين متفرقة بين پروڤانس والأوڤرنى ، ووصل بعضها إلى وديان سويسرا الجنوبية ، ولا زالت آثار هذه الجماعات الإسلامية باقية فى تلك النواحى إلى اليوم (١) .

هذا ولا حاجة بنا هنا إلى الأسهاب فيما هو معروف من اجتهاد المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية محتملين فى ذلك من العناء والخسائر ما لم يكن لهم به عهد فى ميدان آخر ، وهم لم يكونوا — كما نعلم — أهل بحار ولا عهد لهم بمعاناة الملاحة وأخطارها ، ولكن اندفاعهم نحو البحر الأبيض ورغبتهم فى السيطرة على شواطئه هون عليهم ما صادفوا من الأهوال بين أمواجه ، فنجد رجالا منهم لم

---

(١) راجع :

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعه دوزى) ج ٢ ، ص ٢٢ — ٣٣ .

الأخبار المجموعة (طبعة لافرينتى ألكانترا) ص ٢٢ — ٤٧ .

ابن القوطية : افتتاح الأندلس (مدريد ١٩٠٦) ، ص ١٤ — ٤٠ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (طبعة تورى) ، ص ٢٠٤ — ٢٢٠ .

المقرى : نفح الطيب (طبعة دوزى ورايت وكريل ودوجا) ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ١٧٥ .

M. Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Piémokt et dans la Suisse pendant les 8, 9, et 10 siecles de notre ère. Paris, 1836.

H. Zottenberg : Invasions des Sarrazins dans le Languedoc d'après les historiens, musulmans do Devic et Vaisssette : Hist. général du Languedoc. Toulouse, 1875 II pp. 549-558

F. Codera : Estudios Arabes, vol.

G. Lokys : Die Kamfe der Arabern mit der Karolingern bis zum Tode Ludwig, II. Heidelberg, 1906

Lévi - Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. 1 (Le Caire 1944) pp. 37-42.

يسبق لهم أن ساروا بفلك فى ماء يقودون المعارك البحرية على ظهور السفن ويكسبون بعضها ، كما فعل عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى غزوة ذات الصوارى .

وفيما بين سنتى ٤٨–٦٦٨ و ٦٦–٦٨٥ نجد سفن المسلمين تخترق بحر إيجه والدردنيل ، ورجالهم يحتلون جزيرة سيزيكا فى بحر مرمرة ويواترون الحملات على القسطنطينية المرة تلو المرة فى إصرار بالغ ، فلا يرتدون إلا بعد أن تبلغ بهم الخسائر مبلغاً يستحيل عليهم الاستمرار معه ، وبعد أن تفعل النار اليونانية بسفنهم الأفاعيل .

سبع سنوات متوالية : يقضون الشتاء فى البحر – أى فى الجزائر – كما تقول النصوص ، ثم يهبون لمهاجمة القسطنطينية من جديد فى الربيع والصيف ، ثم يمنى أسطولهم بكارثة كبرى عند مروره فيما بين قبرص والشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى سنة ٥٨–٦٧٧ . وفى أثناء هذا الكفاح الطويل سيطر العرب تماماً على شواطئ الجزر الكبرى والصغرى فى هذا الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، وأخرجوه عن سيطرة البيزنطيين وغيروا الوضع السياسى فيه تماماً . ولم تكن هذه هى أخرى محاولات العرب للاستيلاء على القسطنطينية ، فقد تجدد الجهد فيما بين ٩٦–٧١٥ و ٩٨–٧١٧ فى عهد سليمان بن عبد الملك ، واستنفد المسلمون جهدهم براً وبحراً دون توفيق .

ولم يحاول المسلمون بعد ذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن شواطئ البحر الأبيض ظلت فى أيديهم . أى أن الدولة الإسلامية اتجهت اتجاهاً بحرياً من زمن مبكر ، وقد انتهى بها هذا الاتجاه إلى شواطئ البحر الأبيض إلى التحول إلى دولة بحرية متوسطية طوال العصر الأموى . وهنا يحسن أن نقف عند هذه الحقيقة ملياً ، لأنها تكشف عن ناحية هامة ذات أصداء بعيدة فى تاريخ الدولة الإسلامية .

د – بنو عبد شمس والشام :

عند ما ندرس أوليات اتجاه الحركة الإسلامية نحو الشمال ، يبدو لنا أن

الهدف الأول كان السيطرة على « روم العرب » [١] أو العرب المتنصرة [٢] ، وهى مجموعة من القبائل كانت تسكن المنطقة الواقعة بين حدود الحجاز الشمالية المتعارف عليها عند كتاب العرب [٣] : جذام وبلى وعذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة ومجموعة القبائل القضاعية التى تسمى عادة ببنى غسان [٤] . ونتبين أيضاً أن اتجاه الرسول نحو إخضاع هذه القبائل من زمن مبكر جداً من السنة الخامسة للهجرة — هو الذى أفضى بالعرب إلى الاشتباك بالروم بعد ذلك ، ومن ثم يبدو أن ذلك الاشتباك مع الروم قد جاء مصادفة أو استرسالا طبيعياً غير مقصود [٥]

بيد أن الدارس المحقق لا يسعه إلا أن يتبين أن للموضوع أصولا أبعد من ذلك ، أصول تتصل بعلاقات بعيدة بين فريق من العرب وبلاد الشام ، فريق كانت له بهذه البلاد خبرة ومعرفة قديمتان قبل الإسلام ، فلم تكد دولة الإسلام تستقر وتتجه أنظارها إلى التوسع ، حتى اجتهدوا فى توجيهه نحو هذه الوجهة ، ويسروا لجند الإسلام فتح الشام ، وقاموا بعد ذلك بتثبيت أقدامه فيه ، بل عملوا على نقل الدولة الإسلامية كلها إليه ، ذلك هو فريق بنى أمية ، بنى عبد الدار .

ذلك أن جل اهتمام بنى عبد الدار قبل الإسلام كان بشؤون التجارة والمال ، تاركين لبنى عبد المطلب ما كانوا يطمحون إليه دائماً من جاه روحى على العرب يأتيهم من القيام بشؤون الكعبة والحجاج . ولقد كانت قريش كلها تسهم فى

---

(١) انظر مثلا : الطبرى ، طبعة دى خويه ، ج ١ ، ص ٢١٠١ ، وأبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٧ .

(٢) ابن الأثير : (ط . نورنبرج) ج ٢ ، ص ٧٩ أو ٢١١ .

والمسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٣) كان جغرافيو العرب يرون أن أقصى مدن الحجاز إلى الشمال هى خيبر وتيماء وفدك ، وأن الشام يبدأ بعد خيبر بقليل ، وكانوا يرون أن وادى القرى لا يدخل فى حدود الحجاز .

Cf : M.A. Cheira : La Lutte entre arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 20.

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع :

De Goeje : Mémoire sur la conquète de la Syrie. 2e. éd. Leiden, 1900. ds Mémoires de l'histoire et la géographie orientales. No. 2. p. 10 sqq.

Caetani : Annali dell Islam. Milan, 1905-1926. anno 5, No. 4.

تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجية بالمتاجر ، وإذا أخذنا قافلة أبى سفيان — التى تعرض لها المسلمون سنة ٢ هجرية فكان من ذلك غزوة بدر — أساساً ، لرأينا أن معظم أموال غيرها كانت للأمويين وكان رؤساء القافلة كلهم أمويين [١] ، مما يدل على أن تجارة قريش مع الشام كانت فى الواقع أموية [٢] ، وأن بنى عبد الدار كانوا على صلات وثيقة بالشام ونواحيه ، وكان فيهم ميل نحو الاتجاه نحو هذه البلاد ؛ ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكونوا أشد العرب اجتهاداً فى اجتذاب الإسلام إليه عندما أتيحت الفرصة فى ظل الإسلام .

وإن المتأمل لأحوال قريش قبل الإسلام ليرى بوضوح أن بنى عبد شمس كانوا دائماً أهل السياسة والتوجيه العام ، فى حين كان هم بنى هاشم أمور الكعبة والحجاج وما إليها من المسائل الروحية . وإن الإنسان ليدهش ، عند ما يدرس فريقى قريش عند ما وقع « حلف الفضول » فيجد أن معظم قادة العرب بعد الإسلام كانوا من فريق الأحلاف الموالين للعبسميين دون الهاشميين [٣] ، وربما جاء ذلك من اهتمام بنى عبد شمس بالتجارة والسفر ، وهو اهتمام ربما فسر لنا دوافعه ابن هشام بقوله : « إن عبد شمس كان رجلا سفاراً قلما يقيم بمكة ، وكان مقلا ذا ولد ، وكان هاشم موسراً » .

وكانت معظم تجارة عبد شمس ومن معه مع الشام ، وكان لهم عند ولاة البيزنطيين مكان مرموق ، ودليل ذلك ما يقال من أن عثمان بن عفان سفر لقريش

---

(١) انظر التفصيل فى « مغارى الواقدى » ، ط . فون كريمر (كلكتا ، ١٨٥٥ — ١٨٥٦) ، ص ١٩٨ .

(٢) لم يأتنا ابن إسحاق بشىء يثبت ما ذهب إليه من أن هاشم بن عبد مناف هو الذى استن للعرب رحلة الشتاء والصيف (ابن هشام : سيرة الرسول ، ج ١ ، ص ١٤٧) لأن ما يذكره هنا لا يتفق مع سياق حديثه .

(٣) « أحلاف » بنى عبد الدار . — عند الخلاف الذى وقع بينهم وبين بنى عبد المطلب على الرياسة بمكة — هم : بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدى بن كعب (ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١٤٣) .

عند عامل الروم على بصرى ، فمنحه لقب « فيلارخوس » [١] ، ودليله أيضاً ما حدث بعد الإسلام من سؤال قيصر لأبى سفيان عن حال النبى ، مما يدل على أنه كان محل ثقته ، أو أن الروم كانوا يشعرون أنه قريب منهم على أى حال [٢] . ولنضف إلى ذلك أن الرسول الكريم كان يطمئن إلى بنى عبد الدار وأحلافهم ويعهد إليهم فى الوظائف الإدارية وشؤون الدولة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعده ، فضلا عن عثمان الذى أسرف فى ذلك إسرافاً أدى إلى اتهامه بالميل الصريح لأهل بيته ، وهم بنو أمية وبنو الحكم . وهذه الكفاية فى ذاتها نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال ، فإن ذلك يحتاج إلى عقلية عملية دافعية كالإدارة تماماً ، ولا شك كذلك فى أن كفاية بنى أمية فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم .

فإذا بدأت فتوح الشام رأينا بنى أبى سفيان وأحلافهم — بنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وبنى عدى بن كعب — فى القيادات والعمالات من أول الأمر ، وخاصة فيما يتصل بالشام منها ، وقد كان الرسول أول من بدأ ذلك ، لأنه كان يعلم بما بين بنى أمية والكثير من قبائل عرب الروم — مثل بلى — من القرابة والرحم ، فهو الذى ولى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك [٣] ، بل إنه أرسل عمرو بن العاص قائداً على حملة قصدت أرض بلى وعذرة ، وهما من روم العرب ، لأن أم عمرو كانت من بلى ، وعند ما طلب عمرو المدد أرسل الرسول إليه بعثاً على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وفيه أبو بكر وعمرو ، وأصر عمرو بن العاص على قيادة الحملة كلها — رغم ذلك ، فرضخ له أبو عبيدة ، وصلى عمرو به وبعمر وبأبى بكر ولم يستنكر الرسول ذلك ، علماً منه بما كان لهذا السهمى الشاب من صلات ورحم بأهل

---

(١) انظر : إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣) ، ص ٣٤ . وقد استند إلى عبارة لكمرر ، وهذا الأخير لم يأتنا بمراجعه .

(٢) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ٣٢ .

الناحية التى يدور حولها الصراع [١] .

فإذا استطردنا مع فتوح الشام وجدنا رجالا من بنى أمية وأحلافهم فى القيادات من أول الأمر ، بل ببين أبو بكر أن غيرهم لا يصلح لقيادة الحروب فى الشام لجهلهم بنواحيه [٢] ، وأن بنى أمية به أعرف ، فبعث يزيد بن أبى سفيان وأردفه بأخيه معاوية فكان هذا أول الفتح [٣] . ثم إن المتتبع لسير القتال فى الشام واتجاهات العرب والمراكز التى وجهوا إليها همهم ، والمواقع التى اختاروها للقاء ؛ كل ذلك يدل على أن قادتهم كانوا يعرفون الشام جيداً ، وأنهم كانوا يسيرون عن معرفة وخبرة . فإذا ذكرنا أن معظم التوجيه — فيما خلا مسير خالد بن الوليد إلى بصرى — كان بيد يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية وعمرو بن العاص تبينا صدق الحقيقة التى ذكرناها عن أن بنى أمية وأحلافهم هم الذين قادوا جيوش العرب فى الشام ويسروا لهم فتحه ، لسابق خبرتهم به ومعرفتهم بأموره . ويتجلى ذلك بوضوح عند ما نجد يزيد بن أبى سفيان عاملا لعمر على معظم الشام بعد وفاة أبى عبيدة ثم يخلفه على عمالته أخوه الأصغر معاوية ، ثم يجمع عمر الشام كله لهذا الأخير ، فى نفس الوقت الذى يتجه فيه عمرو بن العاص السهمى — وسهم من أحلاف بنى عبد شمس — لفتح مصر ، أى لاجتذاب المسلمين خطوة أخرى إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط [٤] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) راجع ما يذكره الطبرى عما حدث لخالد بن سعد بن العاص فى أول محاولة للعرب لغزو الشام . (الطبرى : تاريخ ، ط . الحسينية بالقاهرة ، ج ٤ ، ص ٦) .

(٣) الطبرى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) وصلة بنى أمية وأخلافهم بعمالات الشمال والشام منذ كان الإسلام تستوقف النظر ، ففى حركة الردة مثلا بعث أبو بكر خالد بن سعيد العاص بن أمية إلى مشارف الشام ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قضاعة . وعندما بدأت حركة الفتوح بعث أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام وأردفه بذى الكلاع وعكرمة ابن أبى جهل وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، « وعقد ليزيد بن أبى سفيان ابن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه وجهزه عوضاً عن خالد ابن الوليد ، وعقد لأبى عبيدة بن الجراح وبعثه إلى حمص ، وأن يزيد بن أبى سفيان بأخيه معاوية بن أبى سفيان ومعه جيش ، فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل يزيد البلقاء ، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن ، وقيل بصرى ، ونزل عمرو بن العاص الغزيات » . ولم يتغير الأمر كثيراً فى أيام عمرو ، فولى الشام أبا عبيدة فيزيد بن أبى سفيان فمعاوية ، ومصر عمرو بن العاص » .

وليس إلى الشك سبيل فى أن علائق بنى عبد شمس بالشام جعلتهم من أصلح العرب لقيادة البعوث الحربية وولاية العمالات ، ونتبين ذلك من أن معظم عمال رسول الله على النواحى كانوا منهم ، وكذلك كان الحال أيام أبى بكر وعمر . وقد علق على ذلك المقريزى بقوله : « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عمال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم »[1] . ويؤكد ذلك مرة أخرى ثم يقول : « فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟ »[2] .

أما فيما يتصل بالشام خاصة فللمقريزى رواية تؤيد هذا المعنى الذى قلناه بصورة تستوقف النظر ، قال فى سياق حديثه عن حروب الردة إن أبان بن سعيد بن العاص بن أمية كان على البحرين ، وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، « فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالاتهم ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « ما لكم رجعتم عن عمالاتكم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ارجعوا إلى أعمالكم » ، فقالوا : « نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً » ، ثم مضوا إلى الشام ، وقاتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتاً »[3] .

هـ ــ أثر علاقات بنى أمية بالشام فى توجيه الدولة الإسلامية نحو البحر :

وخلاصة هذا الكلام أن فرع عبد شمس من قريش اتجه بسبب المنافسة

انظر : المقريزى : النزاع والتخاصم ، ص ٥٥ — ٥٦

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦

(٢) نفس المصدر ص ٤٧ — ٤٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦ . ولابن الأثير رواية غريبة تدل على أن أبا سفيان وشيعته

مع بنى عبد المطلب — إلى شؤون التجارة والأسفار وأنفق همه فيها ، وأنه صرف جهوده نحو الشمال ، فاتصل بروم العرب — أو العرب الضاحية — وارتبط بهم بعلاقات مختلفة ما بين تجارة وصداقة وحلف ، ثم اتصل هذا الفرع بالشام وعربه وورومه ، وارتبط مع هؤلاء الأخيرين بعلاقات بعيدة المدى ، جعلته فى موضع الحليف منهم ، وأن أفراد هذا البيت اتخذوا هذه الصداقة مع الروم وسيلة لتيسير شؤون تجارتهم المكية التى كانوا يقومون عليها ، وأثروا من وراء ذلك واقتنوا الضياع لا فى الحجاز فقط بل فى الشام أيضاً ، إذ كانت لأبى سفيان ضيعة فى البلقاء فى موضع يسمى بقبش ، وأن هذه الخبرة التجارية ولدت فى أفراد هذا البيت خبرة سياسية جعلتهم أصلح العرب للحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وتجلى ذلك بوضوح على أيام أبى سفيان بن حرب عمدة هذا البيت وقائده فى الكفاح أيام الإسلام الأولى .

وكان سر عدائه وعداء أفراد بيته للإسلام هو الخوف على المصالح التجارية وتلك الرياسة التى صارت لهم على قريش وعلى العرب تبعاً لذلك ، وقد نظروا للإسلام من أول الأمر نظرة مادية موضوعية ، فلم يتنبهوا للنواحى الروحية العاطفية فيه ، وظلوا على ذلك حتى وجدوا الإسلام يقتطع منهم أحلافهم من روم العرب ، ثم فتحت عليهم مكة وانهزموا جملة ، فرأوا أن الإسلام قوة لا قبل لهم بها فسلموا له ودخلوا فيه عن إيمان قليل أو منعدم . فلما صاروا فى رحاب الإسلام نفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية ، وتنبه إليها الرسول عليه الصلاة والسلام فعهد إليهم فى العمالات وقيادة البعوث ، ووجد فى ذلك وسيلة لإيلاف قلوبهم ، حتى أبو سفيان — على لدده وعداوته وقلة إيمانه — ولاه عمالة كبيرة استئلافاً له من ناحية وانتفاعاً من خبرته من ناحية أخرى .

وتبينت كفاياتهم مع الزمن ، فثبتت أقدامهم فى الوظائف وشؤون الدولة .

كانوا حتى بعد إسلامهم أميل إلى الروم منهم إلى العرب ، فقد كانوا أثناء وقعة اليرموك يفرحون إذا مال الروم على العرب . والرواية — ولو أنها عن عبد الله بن الزبير ، وهو مشكوك فى رواياته دائماً — إلا أنها ذات معنى خاص .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨٤

وعندما تولى أبو بكر استمر على ثقته فيهم ، جرياً على عادته من المحافظة على سنن الرسول من ناحية ، وانتفاعاً بخبرتهم من ناحية أخرى ، ثم غناء بهم عن بنى عبد المطلب وكانوا مزورين عنه . ثم جاء عمر ، رجل الدولة الإسلامية ، ففطن إلى مزايا أفراد هذا البيت فى الإدارة والحرب ، فأولاهم ثقته ومضى معهم على ما كان عليه أبو بكر ، وحرصوا هم منذ أيام أبى بكر على توجيه نظر الدولة نحو الشام ، وكانوا به أعرف ولهم بأهله علاقات قديمة موصولة ، ومن ثم نجد أبا بكر يضع شبابهم فى قيادات بعوثه ، وأحسن عمر أنهم قادرون على أداء خدمة كبيرة للدولة الإسلامية فى هذه الناحية ، فأولاهم ثقته وولى الكثيرين منهم قيادات فتوح الشام . وزادت فرصتهم اتساعاً عند ما عزل خالد بن الوليد وتوفى أبو عبيدة بن عامر الجراح ، فلم يبق فى الميدان غيرهم .

وبفضل خبرتهم بالشام وملكاتهم الحربية والسياسية تم فتح هذا القطر فى سرعة لم يكن يتوقعها أحد ، وكان واحد منهم — يزيد بن أبى سفيان — أول حاكم مسلم للشام ، ثم خلفه أخوه الأصغر معاوية ، وبه يصل الاتجاه الشامى للبيت الأموى ذروته ، وفى أعماله تتجلى كل الخصائص السياسية العملية التجارية التى امتاز بها رجال هذا البيت ، فعمل من أول الأمر على أن يصبح الشام قطراً أموياً ، ثم اجتهد فى أن يجعل الدولة الإسلامية كلها دولة أموية ، ولم يكن ذلك ميسوراً إلا بنقلها إلى الشام وجعلها دولة شامية بحرية ، وسنفصل هذا الكلام فى الأسطر التالية .

و — الاتجاه البحرى للأمويين :

وعند ما يتتبع الإنسان أعمال معاوية منذ أصبح واليا على الشام ، يدهش من اهتمامه بأمر السواحل والثغور البحرية ، فهو الذى فتح قيسارية سنة ١٩ هـ — بعد أن عجز عمرو بن العاص ويزيد بن معاوية عن فتحها [١] ثم فتح عسقلان [٢] بل تجشم عناء الخروج بنفسه وزوجه معه لفتح قبرص ، بعد أن رفض عثمان

---

(١) البلاذرى : فتوح (القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

الإذن له فى فتحها إلا على هذا الشرط [١] . وإصرار معاوية على فتح هذه الجزيرة وإلحاحه فى ذلك حتى وفق إليه لا يخلو من الدلالة على اهتمامه بالبحر وشؤونه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين « لم يركبوا بحر الروم قبلها » [٢] تبينا ناحية أخرى من جوانب فضل بنى أمية فى تمكين المسلمين من أمر البحر الأبيض ، فقد كانت هذه الحادثة فاتحة لسيادة المسلمين على مياه ذلك البحر.

والمعنى الذى يستنتجه الإنسان من حملة قبرص هو أن المسلمين أصبح لهم أسطول فى البحر ، أسطول وصل فى بعض حملات قبرص إلى ٥٠٠ سفينة ، وليس من المعقول أن يكون المسلمون قد بنوا هذه السفن أو أنشأوا « دار صناعة » لعمارتها فى موانى الشام ، فهى لا شك سفن أهل السواحل مما كانوا يستعملونه أو كان الروم يستعملونه . ولا شك أن المسلمين عند ما استولوا على موانئ مثل أنطاكية وقيسارية وعسقلان قد استولوا كذلك على ما خلفه الروم فى مرافئها من سفن ، فأجروها بمن كان يجرى بها من أهل تلك البلاد قبلا .

ومن أسف أن المراجع لم تزودنا بشىء من المعلومات فى هذه الناحية ، ولهذا فنحن لا نستطيع القول بنشأة دور الصناعة الإسلامية فى ذلك التاريخ المبكر ، ولم يبق إلا أن نسلم بما ذهب إليه هويد وپيرين من أن المسلمين استعملوا سفن أهل البلاد أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا إلى أهل السواحل فى ابتناء سفن لهم ، وعلى أى الأحوال لم تكن أساطيل المسلمين الأولى إسلامية إلا من حيث المقاتلة الذين دخلوا فيها للحرب والفتح . وكلمة أسطول نفسها يونانية Stolos ، وكان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب حربهم فى البر ، أى بالرمى بالسهام والحراب والحجارة فى بعض الأحيان ، فإذا أعياهم الأمر رموا خطاطيف تتشبث بسفن العدو ثم جذبوها إليهم ، حتى إذا تلاصقت السفن تحولت المعركة إلى معركة برية [٣] .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن معظم استعمال الأسطول الإسلامى — أول

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

(٣) انظر تفاصيل موقعة ذات الصوارى ٣٤ هـ — ٦٥٥ م : الطبرى ، جـ ٥ ، ص ٦٩ وما يليها.

الأمر — كان لنقل الجند لا للاشتباك فى القتال فى عرض البحر ، ودليلنا على ذلك قلة ما لدينا من أخبار الوقائع البحرية بين المسلمين والروم : كانت خطة المسلمين فى السيطرة على البحر تتفق مع طبيعتهم ، وهى الاستيلاء على الشواطىء والموانى ، وإلى تلك الخطة ترجع محاولاتهم العديدة للاستيلاء على القسطنطينية ، لأنها كانت فى نظرهم مركز الأساطيل الرومية التى تعترض سفنهم فى البحر وتهدد شواطئهم ، وكانوا يرون أنهم إذا وضعوا أيديهم عليها كفوا أنفسهم هذا الشر .

وعلى طول أيام معاوية نلاحظ اهتمامه العظيم بالشواطىء والموانئ كأنما كانت تسيره فى نشاطه هذا فكرة معينة ؛ فبينما نجد ثغور الشام البرية — أى المفضية إلى آسيا الصغرى — من فتوح رجال كأبى عبيدة بن الجراح وميسرة بن مسروق العبسى وعياض بن غنم وغيرهم من الفاتحين ، نجد سواحل الشام كلها — عدا أنطاكية — من فتوح معاوية . بل يبلغ اهتمامه بأمر البحر مبلغ المخاطرة بغزو جزره ، فقد رأينا كيف فتح قبرص ، ثم أرسل معاوية بن حديج الكندى فقام بأول محاولة إسلامية لفتح صقلية، وفى هذا المقام يقول البلاذرى : « وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى براً وبحراً . فبعث جنادة بن أبى أمية الأزدى إلى رودس — وجنادة أحد من روى عنه الحديث ، ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ ابن جبل ، ومات فى سنة ثمانين — ففتحها عنوة ، وكانت غيضة فى البحر ، وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وخمسين . . . وفتح جنادة بن أبى أمية فى سنة أربع وخمسين أرواد ، وأسكنها معاوية المسلمين ، وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع بن امرأة كعب الأحبار ، وبها أقرأ مجاهد تبيعاً القرآن . . . وفتح جنادة قريطش ، فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق ، وغزاها حميد بن معيون الهمدانى فى خلافة الرشيد ، ففتح بعضها ، ثم غزاها فى خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسى المعرف بالإقريطشى ، وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم [١] » .

---

(١) البلاذرى : فتوح ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

وقد مضى بقية خلفاء بنى أمية على سنن معاوية من الاهتمام بالثغور وحمايتها فنجد هشام بن عبد الملك ينشئ دار صناعة فى صور ، ونجد بنى مروان يحولون هذا البلد إلى ميناء بحرى[1] ، وغير ذلك كثير .

وإلى جانب ذلك نجد بنى أمية — على كثرة مشاغلهم وتوالى ثورات العرب عليهم — ملتفتين إلى البحر وشؤونه لا يكاد يصرفهم عن ذلك شىء ، فهذه الحملات الكبرى التى قاموا بها على القسطنطينية وقعت فى فترات كانت الثورات عليهم فيها على أشدها فى العراق والجزيرة العربية . وفى نفس هذه الظروف أيضاً أرسلوا الحملات التى فتحت المغرب والأندلس وما وراء ذلك ، ولو قوم غيرهم لرصدوا هذه القوات كلها على تثبيت أمرهم فى تلك البلاد المشرقية التى جاءهم منها البلاء فيما بعد .

وقد كانت خطتهم فيما يتصل بالجزيرة العربية والعراق أن يعهدوا فى أمرهما إلى رجال أشداء يحكمونهما بالعسف والقهر ، كأنما كان لا يعنيهم من أمر هذه الولايات إلا أن يسكن كل شىء فيها ويقر كما هو ، أما أن يعنوا بأهلها ويصرفوا إليها جانباً من العناية الحقيقية فلا . وولاتهم على العراق كانوا جبابرة يمتازون بالعنف والقسوة دون أى شىء آخر كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، فأما خيرة رجالهم ، أما الولاة الممتازون الذين يفكرون فى إنشاء أو إصلاح فنجدهم فى ولاياتهم الغربية : مصر والمغرب والأندلس . هناك تجد عمرو ابن العاص منشئ الفسطاط ، وعقبة بن نافع منشئ القيروان ، وحسان بن النعمان منشئ تونس ، وعبد الرحمن الغافقى الذى يصور المجاهد المسلم فى أجمل صوره ، والسمح بن مالك الخولانى الذى عالج شغب عرب الأندلس على أسلوب من الرفق والإنسانية والعدالة لا نجده عند أحد من ولاة المشرق .

بل أننا نجد بنى أمية يعهدون فى حكومات ولاياتهم المغربية إلى رجال من بيتهم مبالغة منهم فى إظهار اهتمامهم بهذه الناحية ، فتولى مصر اثنان من رجال البيت الأموى ؛ بينما لم يتول العراق إلا واحد فقط هو مسلمة بن عبد الملك . بل إننا نجد خلفاء بنى أمية يرسلون أولادهم للاشتراك فى فتوح المغرب ، فنجد

(١) Hitti : Origins of the Islamic State (New-York, 1916) pp. 180-181.

عبد الملك بن مروان مثلا يشترك — وهو بعد أمير صغير — فى فتح جلولاء (فى إقليم تونس) . وهذا كله يدل على عناية خاصة بالجزء الغربى من الدولة — وهو الجزء البحرى منها — واهتمام بشؤونه . وليس من قبيل المصادفات البحتة أن يكون الأمويون هم الذين استولوا على شواطىء هذا البحر وما استطاعوا الاستيلاء عليه من جزائره ، بحيث نستطيع القول إن الدولة الإسلامية كانت على أيامهم دولة بحرية متوسطية من حيث الامتداد الجغرافى والاتجاه العام .

ز — الدولة الأموية ، دولة بحرية متوسطية :

فإذا نحن تأملنا الروح العام الذى كان يسير الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ، لاحظنا بوضوح أنه أقرب إلى روح دول البحر الأبيض الذى ورثته فيما كان لها من ملك ، وربما استطعنا عند التدقيق أن نجد أوجهاً من الشبه بين أسلوب الحكم وطريقة خلفاء الأمويين فى الإدارة ونظرة رجال الدولة إلى أعمالهم وبين هذه النواحى فى دولة كالدولة الرومانية . ومعاوية نفسه — إذا نظرنا إليه ودرسنا سياساته — تبينا أنه كان بعيداً بعداً ظاهراً عن الروح البدوى الحقيقى ، وأقرب ما يكون إلى ما نعرفه عن أهل السياسة والتدبير من رجال دول البحر الأبيض قبل الإسلام . فهذا الرجل المضرى الأصيل ما زال يسعى حتى كسب بنى كلب اليمنيين إلى جانبه ، بل جعلهم فى المرتبة الثانية بعد أفراد البيت السفيانى ، وفضلهم بذلك على مضر أجمعين وهم أهله ، وتخلى بذلك عن أبسط تقاليد البداوة وهو فى الذؤابة منها .

ولم يكن بنو كلب أكثر قبائل عرب الشام عدداً بل كانوا أقربهم إلى الروم ، وكانوا عماد بنى غسان ، وكانوا أحلاف الرومان والبيزنسيين ، ولهذا كانوا ذوى ملكات اقتصادية عمرانية جعلتهم من أصحاب الأراضى والضياع والمتاجر فى الشام ، ثم هم بعد ذلك يمنيون من عرب الجنوب ، وعرب الجنوب كانوا — على طول التاريخ الإسلامى — أهل حضارة ومال وثقافة ، وإن لم يكونوا دائماً من أهل الحكم ، إذ غلبتهم عليه فى معظم النواحى مضر . والتفات معاوية إلى هذه الناحية من أظهر دلائل كياسته وبعد نظره وتفكيره السياسى ، وكان كذلك له أبعد

الأثر فى توجيه الدولة الأموية كلها توجيهاً بحرياً حضارياً .

ومن هذا القبيل ميل معاوية إلى الثقفيين من أهل الطائف ، وثقيف من قحطان أيضاً ، وقد أمدت البيت الأموى بطائفة من أقدر رجاله وأنصاره منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وعبيد الله بن زياد ومحمد ابن القاسم فاتح السند . نعم إن الخليفة الأموى كان ذا ظاهر بدوى يؤثر العيش فى قصور البادية على المقام فى دمشق ، وينزع إلى ما كان أجداده فى الجاهلية يميلون إليه ، ولكنه كان فى الروح أقرب إلى أباطرة الرومان منه إلى أكاسرة الفرس وعواهل الأسيويين . كان كبار خلفاء الأمويين ينظرون إلى مصالح الدولة وخيرها نظرة رومانية ، رغم ما كان يبدو من استهتار بعضهم وميلهم إلى المتاع ، ومجالسهم — كما يصورها أبو الفرج الأصفهانى — لم تكن مجرد مجالس أبهة ومظاهر دينية سلطانية كما ستكون مجالس العباسيين ، بل مجالس ملوك معنيين بشؤون الدولة وأمور الرعايا كافة .

فإذا تركنا الخلفاء ونظرنا فى أحوال الدولة الإسلامية عامة أيام الأمويين تبينا ملامح «رومانية» أخرى حقيقة بأن تستوقف النظر ، وهى تعيننا على تصوير ما نحن بسبيله من دراسة مدى تأثر الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى بيئة البحر الأبيض التى قامت فيها . ومن أظهر هذه الملامح الدور السياسى الذى كانت تقوم به المساجد فى هذا العصر . فقد وصف فلها وزن « المسجد » فى العصر الأموى بأنه كان « فوروم » Forum الإسلام ، وهو وصف يلفت النظر إلى طبيعة المساجد ودورها فى الحياة السياسية للأمة العربية فى العصر الأموى : لم يكن المسجد إذ ذاك مجرد مكان للصلاة بل كان مجمع المسلمين ومنتداهم وملجأ الفقير منهم ومجمعهم السياسى . كان الناس إذا اختلفوا فى أمر من يلى أمرهم تنادوا للاجتماع بالمسجد ، وهناك يتداولون فى الأمر ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفوروم [١] ، وكان عامل البلد إذا دخلها توجه إلى المسجد وأعلن تعيينه من على المنبر ، وكان هذا الإعلان يعتبر إقراراً من الناس

---

(١) Cf. Wustenfeld : Chroniken der Stadt Mekka, II, p. 168. Lammens, Mo'awia, pp. 204-208

لولايته ، بل كان العمال إذا أرادوا إبلاغ الناس شيئاً دعوا الناس إلى المسجد ليبلغوا إليهم ما يريدون وينصرف الناس بعد ذلك دون صلاة جامعة ، وكان العامل يبدو للناس فى هيأة الحاكم لا الإمام : يحيط به الشرط فى صحن الجامع والسيوف مشرعة بأيديهم ، والعامل يتكلم وسيفه أو قوسه بيده .

ولم تكن للمساجد محاريب إذ ذاك ، بل منابر فقط يتحدث عليها الحكام وقتما يشاءون ويقرأون الخطب فى مناسبات الصلوات الجامعة ؛ بل إن رجالا كالمغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه كانوا يستعملون المسجد مكاناً للحكومة ، فيجلس الواحد منهم على كرسيه فى صدر المسجد ويتحدث إلى الناس ويقضى فى أمورهم كأنه فى مجلس حكم لا فى مسجد . وكل أولئك يميل بنا إلى الظن أن الأمويين عند ما خلفوا أباطرة الرومان فى الشام ، واحتوتهم هذه البيئة المتوسطية بتقاليدها القديمة فى الحكم ، استعملوا المساجد كمجمع للناس وموضع اتصال بهم كما كان الأمر فى الفوروم الرومانى [١] . وسيختفى ذلك تماماً فى العصر العباسى ، سيتحول المسجد إلى موضع صلاة فحسب ، لأن العباسيين أقاموا ملكهم على فكرة أخرى ، فكرة الكسروية الأسيوية ، وهى لا تعترف بالرعية ولا تسعى إليها ولا تحفل بالاتصال بها .

بل إن عمال الأمويين — إذا تأملنا تصرفاتهم — وجدناهم أشبه بقناصل الرومان : رجال فى خدمة الدولة ينفذون أوامرها فى طاعة ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون فى الخروج على الدولة والعمل لحسابهم كما سيكون عمال بنى العباس ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهذا موسى بن نصير معتصم فى الأندلس ثم يستدعيه الخليفة ليحاسبه حساباً عسيراً ، فيسير إليه فى طاعة واستسلام ، ويسأله بعض أصحابه عن السبب فى إلقائه بيد الطاعة ، ولو شق عصاها لما بلغ الخليفة منه شيئاً فيقول : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى طرفاً ، ولكن آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج على الطاعة والجماعة » [٢] . وهذا زياد بن

---

(١) انظر عن ذلك :
Lammens: Etudes sur le siècle des Umayyades (Beyrouth, 1930), pp. 56 sqq.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ج ٢ ، ص ٢٠

أبيه يضع فى العراق نظاماً صارماً هو أقرب ما يكون فى دقته وهزمه إلى نظم الرومان ، ويكفى أن نورد هنا قوله لحاجبه : « وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح ، لا توقفه عنى ولا سلطان لك عليه ؛ وطارق الليل لا تحجبه ، فشر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد » [١] . وهذا الحجاج بن يوسف ، مضرب المثل فى الحزم والقدرة الإدارية ومراعاة شؤون الدولة على أسلوب قناصل الدولة الرومانية لا على أسلوب العواهل الأسيويين . وغير ذلك كثير مما يضيق عنه مجال هذا البحث .

وخلاصة هذا الكلام أن بنى أمية ، إذ نقلوا مركز الدولة الإسلامية من الحجاز إلى الشام ، لم يقتصر الأمر على تغيير موضع المركز ، بل تغيير الاتجاه كله للدولة الإسلامية عامة . نعم إن هذا التحول بدأ من أيام أبى بكر وعمر ، لأن فتوح الشام ومصر بدأت وتمت فى أيامهما ، ولكن أثر بنى أمية وأحلافهم فى تيسير هذه الفتوح بالذات واضح لا يحتاج إلى بيان . وقد حرص معاوية منذ استقر له الأمر فى الشام على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية ، وجرى على هذا السنن من أتى بعده من خلفاء بنى أمية ، أى أن الدولة الإسلامية ، التى نشأت قارية وظلت فى محيط صحراوى على عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، تحولت بعد انتقالها إلى الشام إلى دولة بحرية ذات طابع متوسطى واتجاه نحو البحر وعناية بشؤونه . وعلى أيديهم تمت سيطرة المسلمين على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا البحر وعلى جانب كبير من جزائره ، أى أنهم هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر ، وحولوه من بحيرة داخلة فى نطاق العالم اللاتينى اليونانى إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد ، هو العالم الإسلامى المشرقى [٢] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . بولاق ١٢٩٣) ج ٢ ، ص ٦ .

(٢) Oscar Halecki : The Limits and Divisions of European History (London and New York, 1950)

لم تعد حدود العالم الغربى هى السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ومشارف الصحراء الليبية وحدود النوبة كما كان الحال قبلا ، وإنما أصبحت حدود هذا العالم الغربى هى الشواطىء الجنوبية لغالة وشواطىء إيطاليا والأطراف الجنوبية لشبه جزيرة البلقان والجزائر الواقعة فى مدخل بحر إيجة ، وما عدا ذلك من أحواض هذا البحر ومياهه أصبح تحت سلطان المسلمين .

لم تعد السفن الرائحة إلى شواطئ أوروبا والغادية منها تنتقل فى حرية من شواطىء الشام ومصر والمغرب إلى ما شاءت من شواطىء أوروبا صادرة بالمتاجر واردة بالخيرات . وخيم على شواطىء غالة الجنوبية وإيطاليا الشرقية سكون ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجىء ، فيما خلا انتقالات محلية من ميناء إلى ميناء مجاور ؛ وأصبحت سفن المسلمين تخرج من الشام إلى مصر والمغرب والأندلس فى أمن تام ، وهذا ما يعبر عنه بأن البحر الأبيض المتوسط تحول إلى بحيرة إسلامية ، وهو تعبير واسع بعض الشىء من ناحيتين : الأولى أن ذهاب أمر الأمويين وانتقال الأمر إلى العباسيين حال بين المسلمين وبين استكمال السيادة على مياه البحر ، والثانية أن الشعوب الإسلامية نفسها لم تحسن استغلال هذا الوضع ، لأسباب يتصل بعضها بنظرة الدول الإسلامية إلى التجار واستهانتها بأموالهم ، مما زهد الناس فى المتاجرة وجمع المال ، ويرجع بعضها الآخر إلى نفور طبيعى من هذه الأمم للبحر وركوبه ؛ وسنفصل هاتين الناحيتين بقدر ما يسمح المقام فى أطواء هذا الكلام .

وقد عبر جود فروا ديمومبين عن ذلك الذى قلناه تعبيراً دقيقاً فى حديثه عن الانتقال من الأمويين إلى العباسيين ، قال : « ولقد كان الشام الأموى مسنداً ظهره إلى البحر الأبيض ، مواجهاً الخصم الوحيد الخطير الذى قام فى وجهه : الإمبراطورية البيزنطية . وكان يبدو أن مصائر هذا الشام فى ذلك العصر الأموى كانت متوسطية ، ولكن موارده كانت قليلة ، وقد كان لا بد له حتى يستطيع إقامة كيان نفسه واستكمال مظاهر الدولة من الاستعانة بموارد وارد النيل »[1] .

---

(١) Gaudeforoy - Demombynes et Platanov : Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades (Paris. 1931), p. 270.

وقال فى موضع آخر : « ولقد ظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة إلى بنى العباس ، وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق إلى العراق . لقد كان للخلافة الأموية ميل للشؤون المتوسطية ، وأتاح فتح صقلية على بنى الأغلب أمام الإسلام سبلا جديدة إلى الغرب ووضع فى أيدى أهله إمكانيات جديدة . أما الخلافة العباسية فكان وجهها إلى المشرق ، وإذا صح ما يقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية وسيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، فإن هذا كان اتجاها سياسياً لم يقدر له من العمر أكثر مما قدر للبرامكة أنفسهم . وابتداء من القرن التاسع الميلادى ، أصبح موقف الخلافة سلبياً دفاعياً فيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية . من ذلك الحين كانت الخلافة العباسية أسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجارى نحو الخليج الفارسى وبحار الهند ، وسيكون اتساع أراضيها فى نواحى آسيا الوسطى . ولكن ، حتى فى هذا الاتجاه لم توفق الإمبراطوريةالإسلامية إلى الاحتفاظ بتوازنها أو بتجانسها»[١]

ح ــ الدولة العباسية وطابعها الأسيوى :

وهذا الذى أشار إليه المستشرق الفرنسى الكبير موجزاً ، ينطوى على حقيقة كبرى من حقائق التطور العام لتاريخ الدولة الإسلامية . فإن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يكن مجرد انتقال السلطان من بيت إلى بيت أو انتقال العاصمة من بلد إلى بلد ، بل كان فى الواقع نقلا للدولة الإسلامية كلها من عالم إلى عالم : من عالم البحر الأبيض إلى عالم أسيوى يختلف عنه من كل ناحية . كان وجه الدولة إلى الغرب ، وكانت همومها هموماً بحرية غربية ؛ وكان بناؤها يعلو ويتكامل فى محيط هيلينى رومانى ، وأهلها يقتطعون كل يوم قطعة من أرض الإغريق والرومان القدامى ويضيفونها إلى أرضهم بما فيها ومن فيها ، وكان الهدف الأخير للدولة هو الحلول محل القسطنطينية وروما فى آن واحد ، أى محل الإمبراطورية والمسيحية ، والسيادة على البحر الأبيض كله .

وقد كان هذا الاتجاه بعيد الأثر فى كيان الدولة كلها على عهد الأمويين.

---

(١) G. Demombynes, op. cit. pp. 271-272.

ثم تغير هذا كله بعد انتقال الدولة إلى العراق ، من العالم البيزنطى إلى العالم الفارسى ، فكان لهذا الانتقال أبعد الأثر على مصائر الدولة الإسلامية الشرقية : لم يعد الخليفة رجل دولة يجتهد فى إثبات كفايته بجهده على طريقة أباطرة الرومان والبيزنطيين ، بل أصبح خليفة كسروياً يلى الملك بحق إلهى على طريقة عواهل فارس ، وظهر نظام الوزارة بمعناه الفارسى القديم ، وأصبح هدف الدولة الأخير هو المال والجباية ، وأهملت الدولة أملاكها الغربية فانفصل عنها الأندلس والمغرب الأقصى ، وتنازلت عن المغرب الأوسط وإفريقية (تونس) لبنى الأغلب لقاء قدر معين من المال ، وعهدت فى أمور مصر والشام إلى ولاة هم أقرب ما يكونون إلى مرازبة الفرس القدماء ، مهمتهم الوحيدة هى الالتزام بأداء المال المستحق على البلدين ، وأهملت شواطئ الشام واقترب البيزنطيون من حدوده الشمالية شيئاً فشيئاً ، وانتهى الأمر باستيلائهم على أنطاكية وطرابلس ، وعاد جانب كبير من تجارة الحوض الشرقى للبحر الأبيض إلى أيدى البيزنطيين شيئاً فشيئاً ، وهكذا : تصفية حقيقية للجناح الغربى من الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا صقلية فى العصر العباسى فإن التى قامت بذلك كانت دولة إسلامية غربية هى دولة بنى الأغلب ، وإذا كان المسلمون قد فتحوا جزيرة كريد فى هذا العصر أيضاً ، فإن الذين قاموا بذلك كانوا جماعة من الأندلسيين كما سنرى . وقد عدلوا باستيلائهم على هذه الجزيرة كفة التوازن بين الإسلام والنصرانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط بعض الشىء ، أى أن الخلافة الإسلامية الشرقية نفضت يدها من شؤون البحر الأبيض وخرجت من ميدانه جملة وأخذت آسيا تبتلعها رويداً رويداً .

وليس أدل على هذه الناحية الأخيرة من أن الدولة الإسلامية نظرت إلى الشواطئ على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها ، لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها فى سيادة مياه البحر والقفز منها إلى ما وراء البحر من بلدان . لقد كان العصر الأموى عصر تعريف الدولة الإسلامية بعالم البحر الأبيض وتمليكها إياه وتحصين هذه الشواطئ لصالحها ووضع نواة الأسطول الإسلامى ، وكان ينبغى أن تنتقل الشعوب الإسلامية بعد ذلك إلى الطور الثانى ، طور السيطرة الفعلية

على مياه ذلك البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية ، ولكن التغير المفاجىء للأحوال فى العالم الإسلامى وانتقال الأمر إلى العباسيين واتجاه الدولة نحو آسيا ، كل هذا أوقف ذلك التطور وحال بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من تلك السيطرة التى صارت لها على شواطىء هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره .

ط — أدوات السيادة البحرية ، تحصين الشواطىء وإنشاء الأساطيل :

والآن وقد ألممنا بالدوافع التى دفعت بالدولة الإسلامية إلى شواطىء البحر الأبيض ، وتتبعنا انتقالها إلى الشام واستقرارها فى بيئة متوسطية وأثر ذلك على طبيعتها ، ندرس العدة التى اعتمدت عليها الدولة فى حماية شواطئها من الغارات وسيادة أحواض هذا البحر .

وضعت الدولة الإسلامية يدها على جزء كبير من شواطىء البحر الأبيض خلال عصر الراشدين : شواطىء الشام ومصر حتى برقة ، ولم يكن للدولة الإسلامية إذ ذاك خبرة بشؤون البحر ولا أدوات الانتفاع به ، فاعتبرته — كما قلنا — حدوداً ينبغى تحصينها من غارات الأعداء ، وكان الخطر إذ ذاك من ناحية البيزنطيين عظيما ، إذ كانت لهم الأساطيل القادرة على مهاجمة شواطىء المسلمين ولديهم الرجال ذوو الخبرة بالملاحة البحرية ، ولهذا « كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حداً تسهل مهاجمته ، بينما كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر » ، وقد « أتاح خلو يد المسلمين — بطبيعة الحال — من أسطول عربى ميزة كبرى لعدوهم عليهم . . وبينما اتجه البيزنطيون إلى الانتفاع بما عندهم من المزايا ، اجتهد المسلمون فى تلافى نواحى الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها »[1] .

وكان أول ما فعلته الدولة الإسلامية لإدراك هذه الغاية ، هو تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال ، حتى تكون على الأهبة لرد

---

(١) M.A. Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 85.

كل عدوان يأتى من ناحية الروم ؛ وتلك كانت سياسة الدولة الإسلامية أثناء خلافتى عمر وعثمان ، وقد تولى تنفيذ أعظم جانب منها معاوية بن أبى سفيان فى الشام وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح فى مصر . فنقرأ فى النصوص كيف أن المسلمين اهتموا برم حصون بلاد الساحل ، كاللاذقية والبلدة وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت وشدها بالحاميات القائمة . ويعبر عن ذلك البلاذرى بقوله : « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها من قد يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد . فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل »[(١)] . ويزيد ذلك بياناً فى وضع آخر بقوله : « وحدثنى أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب له فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . ولم يأذن له فى غزو البحر ، وأن معاوية لم يزل بعثمان حتى أذن له فى الغزو بحراً ، وأمره أن يعد فى السواحل — إذا غزا أو غزى — جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبنى المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته . قال الوضين : ثم إن الناس — بعد — انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية »[(٢)] .

واتبع المسلمون نفس الخطة فى مصر فى هذا الدور الأول من سياستهم البحرية ، فنجدهم يعنون برم حصون الإسكندرية و « السواحل » ، والمراد بالسواحل هنا المدن البحرية مثل تنيس ودمياط والبرلس ورشيد وثغور بنطابلس

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٨ . وانظر الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب بقلم فيليب حتى :

Ph. Hitti : Origins of the Islamic State (Princeton, 1916) p. 202.

(٢) البلاذرى : فتوح ، ص ١٣٤ و Hitti, op. cit. p. 196 . وقد عنيت بمراجعة ترجمة الأستاذ حتى لما فيها من الفوائد والإيضاحات .

(المدائن الخمس) وهى المعروفة اليوم بإقليم برقة [١] .

وفى خلافتى عمر وعثمان ، وبعد أن أصبح معاوية بن أبى سفيان عاملا على الشام كله ، نجد سياسة المسلمين نحو البحر الأبيض تخطو خطوة إلى الأمام . نعم إن عمر رفض أن يسمح لمعاوية بالغزو بحراً [٢] ، ولكنه عهد إليه فى تحصين السواحل وجعلها على الأهبة لرد أى عادية على عجل ، فنجد المسلمين يضعون نظاماً دقيقاً لحراسة السواحل ، فنقلوا إليها أقواماً من القادرين على الحرب ، وأقاموهم على السواحل وفى كبار مدنها فى معسكرات منظمة معدة ، وقسموا هذه القوات إلى عرافات ، وأقاموا « المناظر » على السواحل ، واقتبسوا من البيزنطيين فكرة اعطاء الإشارات بإيقاد النيران ، فإذا تراءت الإشارات أسرع كل جندى إلى عرافته وسار الجميع إلى موضع الخطر . ونجد هذا النظام فى أكمل صورة فى مصر ، حيث كانت إشارات « المواقيد » تتوالى من الساحل من موقد لموقد حتى تبلغ الفسطاط فيخف المدد على عجل ، وقد بلغ عدد حاميات السواحل فى الشام ستة عشر وفى مصر عشرة [٣] .

فإذا تم تحصين السواحل واطمأن المسلمون إلى أنهم قادرون على إحباط كل محاولة يقوم بها الروم للعودة إلى سواحل الشام ومصر ، أخذوا فى إنشاء أسطول خاص بهم يتولى مقاتلة الروم فى البحر ويعين المسلمين على ما يريدون غزوه من الجزر وغيرها من شواطىء الروم . وكان الهدف الأول من نشأة الأسطول الإسلامى سلمياً ، أى نقل الغلال من مصر إلى الحجاز . وقد اقترن هذا بحفر القناة التى تسمى فى النصوص « بخليج أمير المؤمنين » ، وهى قناة تخرج من النيل شمالى الفسطاط وتصل إلى خليج السويس عند القلزم [٤] ، وعقب ذلك اهتم العرب بإنشاء أسطول نهرى يوصل القمح إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (ط . تورى) ص ١٣٠ و ١٧٥ و ١٩٠ . والكندى : القضاة والولاة (ط . روفن جست) ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح ، ص ١٧٥ . المقريزى : خطط (ط . بولاق) ص ٢٦٦ — ٢٧١

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

وأنشئت لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت « بجزيرة الصناعة » . وقد أظهر المصريون براعة فائقة فى بناء السفن ، فتكون على أيديهم أسطول نهرى ، بل تمكن المصريون من بناء سفن قوية تستطيع الاشتراك فى المعارك البحرية .

ى — موقعة ذات الصوارى البحرية ومكانها من تاريخ البحر الأبيض :

ويبدو أن هذه الهمة التى أبداها المسلمون فى بناء السفن ، هى التى حفزت الإمبراطور البيزنطى قنسطانز إلى الخروج فى أسطول بيزنطى ضخم للقضاء على ما كان لدى المسلمين إذ ذاك من أدوات للحرب فى البحر ، وكانت نتيجة ذلك واقعة ذات الصوارى ٣٤ — ٦٥٥ التى تعتبر حادثاً فاصلا فى تاريخ الملاحة فى البحر الأبيض . ذلك لأن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوى المسلمين البحرية فى مهدها ، ولو وفق فى ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقى على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين [١] .

ولا شك أن السفن التى اعتد بها معاوية فى الشام — والتى أخافت الإمبراطور البيزنطى وجعلته يتوقع خروج حملة بحرية إسلامية ضخمة لمهاجمة القسطنطينية بحراً — كانت من بناء أهل الشام ، أى أن نواة الأسطول الإسلامى كانت شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر ؛ فبينما سار معاوية بسفن الشام إلى قيصرية بآسيا الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح . وقد ألقى الأسطول الإسلامى مراسيه عند فونيكة [٢] على ساحل آسيا الصغرى ، وانتظر مقدم الأسطول البيزنطى .

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) جاء فى كتاب « مصر فى فجر الإسلام » للدكتورة سيدة الكاشف (القاهرة ١٩٤٧) تعليقاً على موقع فونيكة Phoenicus هذا نصه :

« انظر Justus Perthes : Atlas Antiquis. Tab. 18 D 3. ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر phoenix راجع :

M. Canard : Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926).

وقد ذكر الطبرى فى كلامه عن هذه الواقعة عبارة تدل على تردد المسلمين فى ملاقاة البيزنطيين فى معركة بحرية ، وعلى غرور هؤلاء وثقتهم من أنفسهم على ظهر الماء . قال رواية عن أحد من اشتركوا فى المعركة : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا : « الأمن بيننا وبينكم » ، قالوا : « ذلك لكم ولنا منكم » . ثم قلنا : « إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر » . قال : فتنخروا نخرة واحدة وقالوا : « الماء ! » [(١)] . ثم يلى ذلك وصف اللقاء كما سبق بيانه [(٢)] .

ويفهم من وصف المعركة أن كثيراً من قبط مصر اشتركوا فى هذه المعركة وهم على دينهم ، فقد اختلف عبد الله بن سعد مع محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر — وكانا فى المعركة — فقال عبد الله بن سعد : « لا تركبا معنا ، فركبا فى مركب ما فيه من المسلمين أحد » ، ووردت هذه العبارة فى موضع آخر هكذا : « فركب فى مركب وحده ما معه إلا القبط » [(٣)] . وقد كانت هذه المعركة حامية الوطيس حاسمة النتيجة ، إذ لم يعد البيزنطيون يجرؤون بعدها على منازلة المسلمين فى مواقع بحرية ، واكتفوا بمهاجمة سواحل المسلمين ، مما حفز هؤلاء على مضاعفة الهمة فى بناء السفن وإنشاء دور صناعتها ، « فيذكر البلاذرى أنه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم السواحل الإسلامية ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا » [(٤)] .

ولكن مصر ظلت مركز صناعة السفن الإسلامية ، وظل قبطها مشهوداً

وانظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ » .

انظر الكتاب المشار إليه ، ص ٩٤ هامش ١ .

(١) الطبرى : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) انظر عن هذا الوصف : خطط ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٤) سيدة الكاشف : نفس المرجع ، ص ٩٠ .

لهم بالتفوق فى مسائل إنشاء الثغور البحرية والحرب البحرية ، حتى كان يستعان بهم فى كل ناحية من نواحى المملكة الإسلامية ، وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم إشقاو ، والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة وفى القلزم والإسكندرية ؛ فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كان كثيراً ما يطلب من صاحب كورة إشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى ، كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية [١] » .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسى أيضاً وطوال عصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف الدول الإسلامية المصرية عن الاهتمام بشؤون البحر إلا فى عصر المماليك [٢] ، وكان هذا من سوء حظ العالم الإسلامى ، لأن هذه الفترة كانت فترة النهوض البحرى الأوروبى وقيام الجمهوريات الإيطالية التى انتزعت السيادة على مياه البحر الأبيض من أيدى المسلمين . قال ابن خلدون : « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك

---

(١) سيدة الكاشف : نفس المصدر ، ص ٩١ — ٩٢ والمراجع المعطاة فى الهوامش .

(٢) انظر : المقريزى : خطط ، ج١ ، ص ١١٠ — ١١١ .

الروم والإفرنج » [١] .

هذا عن نصيب مصر والشام فى الجهاد البحرى للمجموعة الإسلامية ، وهو جهد لم تتهيأ له الظروف ليبلغ مداه ، لأن الدولة كلها اتجهت وجهة أخرى وسقط البحر الأبيض من حسابها ، وخرجت الولايتان البحريتان الكبيرتان مصر والشام من اهتمامها الحقيقى ، بل وقفت من الشام موقف العداء ، مما أضاع على الدولة الإسلامية فرص الاستفادة منه كمركز لسيادة البحر الأبيض ، ومن أهله كأداة لاستكمال فتح شواطئ هذا البحر وجزره وسيادة أحواضه ، وقد كان لهذا أخطر الآثار فى مجرى التاريخ الإسلامى بعد ذلك ، لأن البحر الأبيض على مدى التاريخ مركز القوة العالمية ومحور سياستها ، من ساده ملك زمام القوة فى زمانه .

وكانت أولى نتائج هذا التحول الكبير فى اتجاه الدولة الإسلامية ، أن تنفس البيزنطيون الصعداء وعادوا يحاولون استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، ولم تلبث سفنهم أن ملكت زمامه وهددت شواطىء المسلمين تهديداً خطيراً .

وقد أورد الأستاذ أدولف جروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٤١ هـ . — ٨٥٥ م تعطينا فكرة عن تهديد البيزنطيين لسواحل مصر حتى ذلك التاريخ ، وشدة اهتمام الولاة بدفعهم عن السواحل ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة فى الأسطول وحماية شواطىء الدولة الإسلامية ، وهذا نص الوثيقة :

« يابا حفص لو رأيت (ما) الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة : يوخذ (النو) اتية وغير النواتية وكلمن قدروا عليه أخذوه يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع أسأل الل (ه) الفرج من عند رحمته والأمير أيده الله قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى وأخرج معه جماعة من

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٦٢ . وانظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

الجند وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين أعزه الله يشدد عليه أن يريح عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك وإذا وردت الخريطة لعله الأمير أبقاه (الله) خرج إلخ »[١] .

وهى وثيقة ذات أهمية كبرى ، لأنها تدل على مقدار تعرض شواطىء المسلمين لغارات البيزنطيين ومدى خوف المسلمين منهم وعجزهم عن ملاقاتهم ، على هذا النحو الرائع الذى رأيناه خلال العصر الأموى والذى تصوره لنا وقعة ذات الصوارى بصورة أوضح من أن تحتاج إلى بيان .

وقد توقف تراجع المسلمين فى ذلك الحوض الشرقى حيناً من الزمن عندما استولى نفر من مسلمى الأندلس على كريت كما سنفصله فى موضعه ، ولكن الدولة العباسية لم تهتم بأمر كريت ومن فيها من المسلمين ، فلم تلبث أن ضاعت من أيدى المسلمين وعاد البيزنطيون يهددون سواحل الإسلام تهديداً خطراً متصلا واستعادوا بعض ما فقدوه . وقد بلغ هذا التقدم البيزنطى ذروته عند ما استولوا على أنطاكية وطرابلس وتعرضت سواحل المسلمين فى الشام ومصر لخطر شديد . نعم إن دول الطولونيون والإخشيديين والفاطميين كانت لها عناية بالشام وبعض المرافئ ، ولكن هدفها من تلك العناية كان برياً لا بحرياً ، كانت تريد أرض الشام لا سواحل الشام ، بل مالت الدولة الفاطمية إلى مهادنة البيزنطيين ومصالحتهم والاعتراف الضمنى بسيادتهم على الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وقد ظهر هذا بوضوح ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، وهو قرن النهوض البحرى لإيطاليا وغربى أوروبا . وعند ما بدأت سفن البنادقة تجوس خلال أمواه الحوض الشرقى للبحر الأبيض وجدت المجال أمامها متسعاً فسيحاً : المسلمون منصرفون عن البحر والبيزنطيون فى ضعف ، فاستغلوا الوضع أحسن استغلال لصالحهم ، انتزعوا سيادة الحوض الشرقى من البيزنطيين وأخذوا من أيديهم جزءاً كبيراً من تجارة الشام وهبطت العناية بالبحرية فى مصر إلى درجة لم نعد معها

---

(١) Adolf Grohmann : From the World of Arabic Papyri. Cairo, 1925. p. 122.

نسمع لها ذكراً فى تاريخ هذا البحر ، اللهم إلا فيما يتصل بالنشاط التجارى المحدود بين موانى مصر والشام وبعض نواحى المغرب .

ولو أن الدولة العباسية اهتمت بشؤون الملاحة فى البحار الأسيوية ، لقلنا إنها أفادت من تجارب الأمويين البحرية نحو قرن من الزمان ، ولكنهم لم يوجهوا أى عناية لشؤون البحار . فبينما أفاد الأمويون من أهل الشام ومصر فى تكوين قوة بحرية تؤمن سيادة الإسلام على جزء كبير من البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يلقون إلى ذلك بالا ؛ وبينما أهتم الأمويون بالاستيلاء على ما أمكنهم من شواطئ البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يفيدون من الملكات البحرية لشعوب الخليج الفارسى ولا يحفلون بإنشاء أسطول .

وقد ظلت البصرة — أكبر موانيهم — ميناء خطراً لا تأمن السفن الدخول فيه ، ولم تحاول الدولة إقامة منارة أو ناظور يعينان السفن على الدخول إليها أو الخروج منها ، وظل عماد الملاحين على مهارة أهل عبدان ، وهى فرضة البصرة على الخليج الفارسى ، وقد ظلت السفن تتحطم عند « الخشبات » فى مدخل عبادان دون أن تحاول الدولة إنشاء مرفأ صالح للسفن التى كانت تحمل خيرات آسيا إلى العراق. وظلت سفن المسلمين فى البحر الأبيض أضخم وأعظم من سفنهم فى المحيط الهندى ، واحتفظ أهل الشام بتفوقهم فى أمور البحار ، حتى فاقت أساطيلهم أساطيل الفاطميين وحالت بين البيزنطيين وبين استعادة مركزهم فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وبخروج الخلافة الشرقية من ميدان البحر الأبيض ، انتقل واجب الدفاع عن مركز المسلمين فيه إلى الدول المغربية والأندلسية ، وقام بنو الأغلب فالفاطميون فبنو زيرى والأمويون الأندلسيون بحماية الشواطئ الإسلامية فى حوض البحر الأوسط والغربى ، وهم الذين حولوا هذين الحوضين إلى بحيرتين إسلاميتين ، بل احتلوا كريت وعدلوا جبهة الإسلام فى الحوض الشرقى ، واحتلوا جنوبى إيطاليا واشتبكوا مع الجنويين والبيزيين فى صراع بحرى عنيف ، امتد حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كما سنرى . وسنعرض الآن لما قام به كل من المغرب والأندلس فى هذا الميدان على وجه الإجمال .

ك – المغرب الإسلامى والبحر الأبيض :

رأينا كيف كان أهل المغرب يساهمون بنصيب كبير فى النشاط التجارى فى البحر الأبيض قبل الإسلام ، وكيف كانت موانى الشمال الإفريقى مثل قرطاجنة وبونة وسلداى Salade وسبتة Septem وطنجة Tingis محطات هامة فى تجارة هذا البحر ، ترسو بها السفن بالمتاجر وتقلع عنها إلى موانى غالة وإيطاليا وإسبانيا أو تلم بها أثناء رحلاتها لتمتاز فيها ، وهذه الحركة التجارية البحرية النشيطة إنما هى مظهر لما امتاز به أهل سواحل المغرب من ملكات بحرية تجارية تظهر وتتجلى كلما أتيحت الفرص ، وهى مرتبطة أشد الارتباط بالحالة العامة داخل بلاد المغرب ، فإذا ساد السلام وجدنا أهل المغرب فى البحر ، وإذا اجتاحت البلاد موجات الفوضى أو الحرب القبلية أو الغزو الأجنبى سكنت الحركة فى موانى المغرب وانكمش المغاربة عن البحر حتى يعود الهدوء . وربما كان الأصل فى هذا النشاط المغربى هو نزول الفينيقيين شواطئه وإنشاؤهم المحطات التجارية البحرية على طول هذه الشواطئ ؛ وأهم هذه المحطات كانت قرطاجنة التى تحولت بعد ذلك إلى مستعمرة فينيقية فدولة قائمة بذاتها كان لها فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل .

ويختلف المغرب عن غيره مما دخل فى حوزة الإسلام من بلاد البحر الأبيض بأن النشاط البحرى يكون جزءاً لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى تبعاً لذلك ، لأن أخصب أراضى المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس إلى المحيط الأطلسى ، ومن دون هذا الشريط يقوم «سياج الجبال المتهيلة » – كما يقول ابن خلدون – وهى جبال درن أو الأطلس ، وتليها نواحى الصحراء تتخللها واحات وسهول ضيقة لا تتسع إلا فى أقصى الغرب فيما يعرف الآن بمراكش .

وسكان هذاالشريط الساحلى العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ، ولهذا كان أهله من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين ؛ وقد حاول الفاتحون المسلمون لأول دخولهم المغرب أن يقطعوا صلته بالبحر ، فتعمدوا نقل مركز الحياة فيه من « قرطاجنة » إلى بلدة داخلية اختطوها هى « القيروان » ، ثم أكدوا ذلك

الاتجاه بتخريب قرطاجنة ؛ ولكن طبيعة البلاد غلبت عليهم فأنشأوا عقب تخريبها « ميناء تونس » ، وكان الذى خرب الأولى وبنى الثانية واحداً هو حسان ابن النعمان .

وعلى الرغم من قيام « تونس » وتعمير المسلمين الناحية « العدوة » المغربية التى تعرف الآن « بالريف » واهتمامهم بسبتة وطنجة بسبب فتحهم الأندلس ، فإن حالة الحرب التى استمرت قائمة بين الإسلام والنصرانية أوقفت النشاط البحرى المغربى ، ودام ذلك طالما كان سلطان المشرق على المغرب قوياً مباشراً ، فلما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشىء بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد إلى البحر الأبيض وعاد أهله إلى نشاطهم السابق فى حوضه الأوسط .

ذلك أن المغرب لم يظل خاضعاً للمشرق إلى ما لا نهاية — كمصر مثلا — بل دأب أهله من أول الأمر على التخلص من سيادة المشارقة ، ودخلوا معهم فى صراع طويل . وقد مر الصراع بين المشارقة وأهل المغرب فى أدوار ثلاثة : الأول من بدء الفتح الإسلامى إلى أوائل عهد الأغالبة ، وفيه كانت سيادة المغرب مداولة بين المشارقة والمغاربة ، لهؤلاء يوم ولأولئك يوم ، وقد فشل الكثير من العرب فى السيطرة على المغرب وسيادة أهله خلال هذه الفترة ، كما نرى فى محاولات آل عبد الرحمن بن حبيب وبنى هزارمزد . وقد كان القلق الذى ساد أمور المغرب ، واجتهاد قبائله البربرية فى التخلص من سيادة العرب ، هو الدافع الأساسى الذى جعل هارون الرشيد يترك إفريقية لمحمد بن الأغلب لقاء جزية سنوية مقررة . وقد خفت يد المشرق على إفريقية بذلك ، وإن سادتها أسرة عربية ذات اتجاه شرقى ، ولكن طبيعة البلاد وأهلها غلبت ، فانفتح باب البحر الأبيض أمام أهل إفريقية من جديد ، واشتد النشاط على سواحل إفريقية ذلك الاشتداد الذى بلغ ذروته فى فتح صقلية ومغازاة جنوبى إيطاليا .

وإذا نظرنا إلى الأمور من هذه الناحية ، تبين لنا أن فتح صقلية لم يكن مصادفة أو مجرد حركة فتح استمراراً لسياسة الفتوح الإسلامية العامة ، بل محاولة من المغرب لاستعادة مركزه فى البحر الأبيض فى نطاق إسلامى . لقد

اكتسب أهل المغرب من الإسلام شعوراً بأنفسهم ونزوعاً نحو السيادة ، وهذا النزوع هو الذى دفعهم إلى محاولة التخلص من سيطرة العرب عليهم أولاثم إلى سيادة حوض البحر الأبيض الأوسط والغربى بعد ذلك . وبينما كان المغرب قبل الإسلام تابعاً لما يقابله من شواطئ البحر الأبيض الشمالية نراه ينزع إلى سيادتها بعد الإسلام ، وقد تم له ذلك على خطوتين : الأولى تمت فى عصر الأغالبه بفتح صقلية والشواطئ الجنوبية لإيطاليا ، مما جعل الحوض الأوسط للبحر الأبيض والبحر التيرانى أيضاً تحت رحمة المغاربة المسلمين — وقد كانت العلاقات بين المغرب وغربى أوروبا إذ ذاك علاقات حرب وعداوة مستمرتين ، واستمر ذلك أيضاً طوال الفترة الفاطمية من تاريخ إفريقية . والثانية تبدأ عند ما استقل المغرب بأمر نفسه وتخلص من سيادة العرب والمشرق نهائياً فى عهد بنى زيرى وما تلاه ، وهنا لا تصبح الحرب هى العلاقة الوحيدة بين أهل المغرب ، وأوروبا النصرانية بل تدخلها علاقات التجارة وتبادل المنافع كذلك ، ويرتبط أهل المغرب مع أهل أوروبا النصرانية بالمعاهدات وتجرى بينهم السفارات ، وتصبح سيادة الحوضين الأوسط والغربى للبحر الأبيض المتوسط مداولة بين المسلمين المغاربة وأمم النصرانية . ولكن المتتبع لتطور الموقف فى هذين الحوضين يجد أن أمر المسلمين فيهما كان فى ضعف مع الزمن ، وانتهى الأمر بانتقال السيادة عليهما إلى أيدى أمم غربى أوروبا وخاصة بعد ضياع الأندلس . والحادث الحاسم الذى أضعف قوى المغرب البحرية هو الغزوة الهلالية التى شلت نشاط المغرب كله وأشاعت فى أنحائه الفوضى والخراب ، فلم ينهض من جديد إلا على أيدى المرابطين والموحدين .

وقد تتبع « ميكيلى أمارى » والبارون « ماس لاترى » تطور الموقف فى وسط البحر الأبيض وغربه بين الإسلام والنصرانية ، فأظهرا كيف أن سيادة المسلمين عليهما كانت تامة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى ، ثم بدأت شعوب غرب أوروبا تنازعهم هذه السيادة ابتداء من عهد بيبن الكبير منشئ البيت الكارولنجى ، بل بلغ الأمر أن نزلت قوة نصرانية يقودها الكونت بونيفا تيودى لوكا على سواحل تونس سنة ٢١٣—٨٢٨ . وفى نهاية ذلك القرن نجد السفن

الأوروبية أقوى من سفن المسلمين وأحسن بناء [١] ، وقد توقف تمادم النصارى فترة بسبب نهوض المغرب فى عهد الفاطميين فبنيت المهدية سنة ٣٠٨–٩٢٠م وأصبحت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية ضد أوروبا الغربية ، ودور هذا الثغر فى تاريخ البحرية الإسلامية وتاريخ البحر الأبيض كله عظيم ، وهو جدير بدراسة على حدة .

ولا تحدثنا مراجعنا العربية عن النشاط البحرى العظيم الذى أبداه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادى ، لأن معظم هذا النشاط كان نشاطاً غير رسمى ، أى أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحساب أنفسهم ، ولكن حوليات النواحى التى وجه المغاربة إليها نشاطهم تعطينا فكرة واضحة عنه ، وهى تصف هذا النشاط بأنه كان نشاط قرصان لا هدف له غير السلب والنهب ، ولكننا عندما ندرس القليل من النصوص العربية التى بين أيدينا نتبين أن الدافع الأكبر لهذا النشاط كان الحرب الدينية ومغازاة بلاد النصارى ، لأن حوض البحر الأبيض أصبح منذ دخول الإسلام دار حرب ، والجهاد الدينى كما نعلم لا يتنافى مع اكتساح المغانم وأسر الناس وتخريب المواقع ، والحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر : إسلامية أو نصرانية . ومما هو جدير بالذكر أن العرف الإسلامى كان يستنكر الإسراف فى النهب والسلب ، ومصداق ذلك هذا الخبر الذى يسوقه النويرى عن أول غزوة قام بها المسلمون من المغرب على سردانية ، قال : « ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة ، وهى فى بحر الروم كثيرة الفواكه ، فدخلوها فى سنة اثنتين وتسعين (٧١١ – ٧١٢ م) ، فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع فى الماء ، وجعلوا أموالهم فى سقف البيعة الكبرى التى لهم تحت السقف الأول ، وغنم المسلمون منها ما لا يحد ولا يوصف ، وأكثر الغلول . واتفق أن رجلا من المسلمين اغتسل فى الماء ، فعلق فى رجله شىء فأخرجه ، فإذا هو صحفة من فضة ، فأخرج المسلمون جميع ما فيه . ودخل رجل من المسلمين إلى

---

(١) Michele Amari : Diplomi Arabi.

تلك الكنيسة ، فنظر إلى حمام ، فرماه بسهم فأخطأه ، ووقع فى السقف ، فانكسر لوح ، ونزل شىء من الدنانير ، فأخذوا الجميع ، وزادوا فى الغلول ، فكان بعضهم يذبح الهر ويرمى ما فى جوفه ويملؤه دنانير ، ويخيط عليها ويلقيه فى الطريق ، فإذا خرج أخذه . وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهباً ، فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلا يقول : اللهم غرقهم ! فغرقوا عن آخرهم »[1] .

وهذه الرواية تدل على أن نشاط مسلمى المغرب فى البحر بدأ منذ زمن مبكر وتدل كذلك على أن غزوات المسلمين البحرية لم تكن كسباً كلها .

وسنذكر هنا أهم ما قام به أهل المغرب من أعمال حربية فى حوض البحر الأبيض حتى فتح صقلية ، وينبغى أن ننبه إلى أننا نعتمد هنا على مراجع أوروبية لاتينية لا يفرق معظمها بين ما كان يقوم به أهل المغرب وما كان يقوم به أهل الأندلس من أعمال فى هذا المضمار . والحقيقة أنه من العسير جداً أن نفصل ما قام به كل من الجانبين عن الآخر ، فقد كان الجانبان على نشاط عظيم فى البحر على طول العصور الإسلامية ، حتى فتح صقلية اشتركت فيه جماعات أندلسية . بيد أننا نستطيع أن نقول إن الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر الأبيض الأوسط كان مغربياً ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسياً .

فعقب فتح المسلمين للمغرب ، وقبل نهاية القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادى) ، نجد مسلمى المغرب يهاجمون شواطىء إيطاليا الجنوبية والغربية ، ثم وجه المسلمون جهودهم نحو صقلية ، وقاموا من إفريقية (تونس) بغارات متوالية عليها ابتداء من سنة ٣٢–٦٥٢ م . إذ يذكر ثيوفانيس أن المسلمين هاجموا صقلية فى ذلك التاريخ ، ثم سكن النشاط البحرى حيناً ليتجدد من أوائل القرن الثامن الميلادى ، فنجد المسلمين يهاجمون صقلية فى سنوات ١٠٢–٧٢٠ و ١٠٩ – ٧٢٧و ١١٠ –٧٢٨ و ١١٢ –٧٣٠ و ١١٤ –٧٣٢و١٣٥ –٧٥٢ و ١٣٦ –٧٥٣ ولكنها كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى إلى فتح الجزيرة .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ (ط . جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٩) ص ٢٢ . وانظر الترجمة الإسبانية لهذا الجزء ، ص ٣٣ .

وكان من الممكن أن يستمر الأمر على ذلك المنوال ، لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغالبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصاً له من متاعب داخلية كثيرة ، فقد كان اضطهد « جند » العرب لكثرة شغبهم وحاول القضاء عليهم ، وكون لنفسه جيشاً من « السودان » قوامه « ألف أسود » ليستغنى بهم عن جند العرب والبربر . ولكن الأمر لم يتحسن لأن الخصومة اشتدت بين السودان والعرب والبربر وتعرضت الدولة كلها للضياع ، ففكر زيادة الله فى ميدان واسع يلقى فيه بهؤلاء وهؤلاء ليشغلهم به عن نفسه . وتطلع ببصره ناحية صقلية ، وكانت الدولة البيزنطية فى شغل بنفسها عن أمور صقلية ، واستبد بالأمر فيها قائد بيزنطى — هو يوفيميوس Euphemius الذى تسميه المراجع العربية « فيمه » — فحاولت الدولة إخضاعه فاستغاث بزيادة الله ، فعجل بتجهيز حملة لفتح صقلية ووضع على رأسها قاضياً مسناً هو أسد بن الفرات.

وخرجت الحملة الإسلامية سنة ٢١٢—٨٢٧ من سوسة ، ونزلت الجزيرة وحاصرت « سرقوسة » ولم تستطع الاستيلاء عليها أول الأمر ، لأن أسطولا بيزنطياً خف لعونها ، وكادت الحملة تفشل ، لولا مدد ساقه الله من الأندلس ، كان مكوناً من نفر من مجاهدة البحر فيها أسرعوا بتخليص المسلمين الذين كانوا قد تحصنوا فى جبل مينيو Minio ، فتمكن المسلمون من الاستيلاء على « بلرم » فى ٢١٦ /٨٣١ بعد حصار عام ، وحاول البيزنطيون المقاومة ، ولكن النابليين انضموا إلى المسلمين ، فسقطت مسينا فى أيديهم سنة ٢٢٩—٨٤٣ . ثم تجرد المسلمون لحصار آخر المعاقل البيزنطية الكبرى وهى سرقوسة ، فسقطت سنة ٢٦٥ — ٨٧٨ بعد حصار طويل ، وكانت قصريانه Castrojiovanni قد سقطت قبل ذلك سنة ٢٤٥ /٨٥٩ ، ولم تسقط طبرمين Tauromenium إلا سنة ٢٩٦—٩٠٨ ، أى أن المسلمين أنفقوا ١٣٨ سنة فى فتح هذه الجزيرة ولم تخلص لهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين .

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى الإسلامى ، فإن سيطرتهم عليها جعلت مفتاح حوض البحر الأوسط الأبيض والغربى فى أيديهم ، وإذا كان المسلمون لم يحسنوا الاستفادة من صقلية كبلد عظيم وقع فى أيديهم

وكان فى إمكانهم تحويله إلى بلد إسلامى خالص ، فلم يلبث أن ضاع من أيديهم ، إلا أنهم أفادوا منه كمفتاح بحرى عظيم القيمة ، وعرفوا كيف يهددون منه إيطاليا كلها ، ويسودون البحر التيرانى كله ، ويفتحون أجزاء كثيرة من إيطاليا . ومن أسف أن دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى لم تضع سياسة بحرية رسمية تمكنهم من الإفادة من صقلية مركزها ، ولكن مرابطة المسلمين ومجاهدة البحر قاموا بجانب مما قصرت الدول المغربية الرسمية فى أدائه ، فأظهروا نشاطاً عظيما فى الغزو فى البحر ، وتمكنوا من موالاة الغزوات على جنوبى إيطاليا وغربيها ؛ ولو أن الدول الإسلامية المغربية أيدتهم فى أعمالهم ونظمتهم ، لكان للمسلمين فى حوض البحر الأبيض تاريخ آخر .

وقد اشرنا إلى أنه من العسير التمييز بين ما قام به أهل المغرب وأهل الأندلس من أعمال فى البحر فى ذلك الحين ، لأن مصادرنا هنا لاتينية أوروبية ، وهى لا تميز بين المسلمين بعضهم وبعض ، بل تضعهم كلهم فى طائفة واحدة ، فتسميهم تارة « المغاربة » Mauri أو « قرصان » أو ساراسينى Sarraceni ، ولكننا نستطيع أن نقول إن أهل المغرب هم أصحاب كل ما ينسب للمسلمين من أعمال فى إيطاليا ، وأهل الأندلس هم أصحاب ما سوى ذلك .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر أعمال مسلمى المغرب فى حوض البحر الأبيض يحسن أن نلقى نظرة على السياسة البحرية لكل من دول المغرب التى تولت الأمر فيه خلال الفترة التى ندرسها ، وهى دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى بفرعيها : أى بنو زيرى أصحاب ما يعرف الآن بتونس ، وبنو حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم والتى سادوا منها المغرب الأوسط .

فأما بنو الأغلب فكانت الأمور مضطربة فى أيديهم إلى درجة لم تمكنهم من رسم سياسة بحرية ، وإنما كان جل اهتمامهم بمحاربة الخارجين عليهم من البربر والعرب ، ولو أن الأمور استقرت فى أيديهم فى المغرب لكان لهم فى البحر دور كبير ، فقد كان للكثير من أمرائهم نزوع إلى الكفاح البحرى واهتمام بأمور السواحل وانصراف إلى الجهاد الدينى . ولكنهم كانوا بيتاً قليل الملكات ورث بلد يضطرب كل ما فيه ، بيد أنهم تمكنوا على أى حال من إقرار السلام

فى إفريقية — وهى ما يعرف الآن بـ « تونس » — لفترات طويلة نوعاً ما ، وخلال هذه السنوات انتعش أهل إفريقية وتفتحت نفوسهم للجهاد ، فكان هذا النشاط البحرى الذى ذكرناه ، وهو جهاد معظمه غير رسمى ، بل كان الذين قاموا به من خصوم الدولة ، فعلى طول الشواطىء التونسية قامت جماعات « المرابطين » ، وهم جماعات من الأتقياء كانوا لا يرضون عن الأغالبة ، فانصرفوا عنهم واعتزلوا على شاطىء البحر فى مواضع مثل « المنستير » و « سوسة » و « تونس » ، وهناك ابتنوا حصوناً كانوا يسمونها « قصوراً » يقيمون فيها رهباناً مجاهدين ، يحرسون المسلمين ويغزون النصارى . ويفهم من النصوص أن أعدادهم كانت كثيرة وأن جهدهم فى الحرب كان عظيما . والغالب أن هؤلاء هم الذين قاموا بمعظم النشاط البحرى المغربى مستقلين عن الدولة الأغلبية .

ثم كانت الأحداث التى ذكرناها والتى جرت إلى فتح صقلية . والمتأمل لأحداث هذا الفتح يتبين أن معظم أعمال المسلمين فيه كانت جهاداً حراً لم تتدخل الدولة فيه إلا بقدر قليل . ولقد ألقى زيادة الله فى ميدان صقلية بأعداد كبيرة من اليمنيين والخراسانيين والبربر ، وانضمت إليهم هناك جماعات من الأندلسيين ، وكانت هذه الجماعات متنافرة متباغضة ، فوقع النزاع بين بعضها والبعض لأول سنوات الفتح ، فتلكأ وتعطل . وكلما تقدم الفتح زاد الخلاف بين هذه الطوائف ، وخاصة بين المغاربة جملة والأندلسيين جملة . وقد بلغ الخلاف بينها مبلغاً خطراً على أوائل القرن العاشر الميلادى ، مما اضطر إبراهيم بن الأغلب إلى الذهاب إلى الجزيرة بنفسه لتهدئة الأحوال . وقد كان لهذا العمل أثر طيب إذا اجتمعت قلوب مسلمى صقلية ، وتمكنوا من الاستيلاء على آخر معقل بيزنطى فى الجزيرة وهو طبرمين سنة ٩٠٨ .

غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد ، وتقسمت البلاد بين الطوائف تقسما محزناً مما عجل بأيام الإسلام فى صقلية . وقد زار الجزيرة بعد ذلك بسنوات الجغرافى ابن حوقل النصيبى ووصف ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفاً يدعو إلى العجب ، ويدل على أن الخلاف بين المسلمين لم يصل فى بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الأمر فى صقلية ، حتى أن الابن كان ينافر أباه

ويرفض الصلاة معه فى مسجد واحد ، فكان لكل قادر منهم « مسجد جامع وإمام » .

ولكن النشاط البحرى لمسلمى صقلية كان مستمراً رغم ذلك ، ولكنه كان نشاطاً موزعاً مفرقاً : كل جماعة فى موضع على الساحل تعمل لحسابها مستقلة عن الأخريات ، فلا غرابة والحالة هذه أن نجد أعمالهم مجرد غارات سريعة قليلة الأثر يغنم المغيرون خلالها ما يصل إلى أيديهم فى الموضع الذى ينزلون فيه من شواطئ إيطاليا ثم يعودون .

وأما الفاطميون فلهم فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل ، سواء خلال الفترة المغربية أو المصرية من تاريخهم ، غير أن نشاطهم خلال الفترة الأولى كان موزعاً بين محاربة النصارى ومحاربة الأمويين الأندلسيين ، تارة يشتبكون مع هؤلاء وتارة مع أولئك بغير تفريق ، ويتعقبون سفن الأندلسيين وسفن النصارى بنفس الهمة ، ولكنهم رغم ذلك كانوا أعظم أثراً فى البحر ممن سبقهم وممن تلاهم من بنى زيرى . فقد عرفوا كيف يكونون أسطولا قوياً كما نجحوا فى تكوين جيش كبير ، وقد بلغ نشاطهم البحرى ذروته على أيام عبيد الله المهدى ، ففى عهده استقرت أقدام المسلمين فى سردانية ، وهو الذى تنبه إلى أن سردانية أصلح القواعد لمهاجمة الغرب النصرانى ، فأنشأ فيها مراكز قوية ونقل إليها قوات كبيرة من المسلمين . ثم جمع قوات المسلمين فيها وقام منها بأخطر هجوم إسلامى عرفته جنوا سنة ٣٣٢ — ٣٣٣ هـ . وربما كان سر اهتمامه بسردانية هو خوفه من الأندلسيين ، ورغبته فى حماية شواطئه وشواطئ صقلية منهم .

وفى عهد عبيد الله المهدى أنشئت « المهدية » فى تونس ، وهى التى ستصبح أقوى مركز بحرى إسلامى للعمليات البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد قام هذا البلد بعبء الكفاح ضد النصرانية بقية العصر الفاطمى وعصر بنى زيرى ، ومنها خرجت أقوى الحملات الإسلامية على جنوبى إيطاليا .

وعند ما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل إليها نشاطهم البحرى أيضاً ، بيد أن نشاطهم البحرى خلال الفترة المصرية من تاريخهم لم يكن يهدف إلى مغازاة البيزنطيين بل إلى حماية شواطئهم الطويلة منهم ، فقد سيطر الفاطميون على

شواطئ الإسلام من أنطاكية إلى الإسكندرية ، وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله ، فشغلوا به عن المغازاة فيما وراء البحر من بلاد النصرانية .

وقد تمكن الفاطميون من سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض سيادة تامة أمنت أمواهه ، فجرت السفن بالمتاجر ما بين شواطىء الشام ومصر ونشطت الموانى والثغور نشاطاً عظيما لم تبلغه فى فترة ماضية ، فاتسعت أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتنيس اتساعاً كبيراً وعظمت تجارتها ، حتى لقد طلب الإمبراطور البيزنطى من الخليفة الفاطمى أن يتنازل له عن تنيس فى مقابل مال عريض ، وتنيس كانت تقوم على جزيرة فى الماء ، فحسب البيزنطيون أن الخليفة الفاطمى لا يعدها من أرض مصر ويتنازل عنها ، وكانت أعظم مركز للنسيج فى العالم الإسلامى إذ ذاك ، وكانت تقدم للبلاط البيزنطى أحسن أنواع الحرير الأرجوانى ، وكانت منظمة نظاماً صناعياً تجارياً عظيما . وتقدمت — نتيجة لهذا النشاط البحرى — صناعة السفن الإسلامية ، حتى كانت سفنهم فى شرق البحر الأبيض أحسن وأضخم من سفنهم فى بحار الهند وآسيا .

وكان الفاطميون بطبعهم أصحاب عناية بالاقتصاد وشؤونه ، وكانوا ذوى حرص على طرف الصناعة ، حتى لقد ضمت خزائنهم منها أحصى المقريزى بعضه فى صفحات كثيرة من خططه ، وربما كان هذا هو السر فى ارتفاع أمر التجارة والتجار فى عصرهم . وكان الفاطميون فى سياستهم العامة أميل إلى مصالحة البيزنطيين فى موانى الإسلام وبعض مدنه ، ونجد تجار المسلمين يدخلون أراضى الدولة البيزنطية ويتاجرون معها فى حرية تامة . أى أن الفترة الفاطمية تعتبر فترة الأوج فى النشاط البحرى التجارى الإسلامى فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

ومن الطبيعى والحالة هذه أن نجد النشاط البحرى الحربى الفاطمى قليلا نسبياً ، يكاد يقتصر على الدفاع عن مياه دولتهم ولا يتعداه إلى الغزو والفتح . وليس أدل على ذلك من قلة اهتمامهم بقاعدة كبرى مثل قبرص . فهذه الجزيرة الكبيرة التى تعتبر مفتاح الحوض الشرقى للبحر الأبيض كانت على أيامهم فى حالة هى وسط بين الخضوع للمسلمين والبيزنطيين : لقد بدأ هؤلاء الأخيرون

غزوها سنة ٢٨–٦٤٩ أيام معاوية بن أبى سفيان وكانت لهم فيها وقائع وحروب اشترك فيها نفر من الصحابة ونسائهم ، وأهمهن أم حرام التى استشهدت هناك ولا زال قبرها إلى الآن على مقربة من لارانقا Laranca أكبر المزارات الإسلامية فى الجزيرة .

وقد ظلت الجزيرة خلال العصر الأموى قسمة بين المسلمين والروم ، فكانوا يتقاسمون خراجها بناء على اتفاق تم بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور چستنيان الثانى سنة ٦٩–٦٨٨ . ويقال أن هارون الرشيد أراد أن يحسم موقف الإسلام فى هذه الجزيرة ، ولكنه لم يفعل شيئاً . ومن الثابت على أى حال أن معظم أهل الجزيرة كانوا نصارى إلى عهده .

وعند ما نهضت الدولة البيزنطية على أيام المقدونيين تجرد هؤلاء لاستخلاص الجزيرة ، فغزوها فيما بين سنتى ٢٦١–٨٧٤ و ٢٦٨–٨٧٦ ثم استعادها للدولة البيزنطية نقفور فوكاس فيما بين سنتى ٣٥٢/٩٦٣ و ٣٥٩/٩٦٩ ، وقد خرجت من أيدى المسلمين من ذلك الحين .

ولم يحاول الفاطميون استعادتها ، فظلت فى يد البيزنطيين حتى انتزعها منهم ريتشارد قلب الأسد أثناء الحروب الصليبية ، ووهبها لفرسان الداوية ، ثم انتقلت إلى يد جى دى لوزينان ، وظلت خاضعة للفرنجة ٤٠٠ سنة حتى فتحها بيبرس البندقدارى سنة ٦٧٩–١٢٧٠ .

وقد يكون الفاطميون أعظم دول الإسلام اهتماماً بشؤون البحر بعد الأمويين ، وقد يكون ذلك أثراً من الآثار المغربية فى تكوين دولتهم ، فإن البحر — كما قلنا — يكون جزءاً لا يتجزأ من كيان المغرب الاقتصادى والاجتماعى والسياسى أيضاً ، وذلك لأسباب جغرافية ألمعنا إليها فيما مر . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية الفاطمية وصلت إلى درجة كبيرة من القوة والانتظام قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، يدل على ذلك هذا النشاط البحرى العظيم الذى تحدثنا عنه على أيام عبيد الله المهدى . فلما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل معهم هذا الاهتمام بالبحر وشؤونه ، وزاد أمره عند ما استقرت الدولة فى مصر ، ووجدت فى البلاد تقاليد بحرية قائمة ودور صناعة صالحة ، وإن كان الإهمال قد كاد يعفى عليها .

وللقلقشندى فقرة ذات قيمة عظيمة فى هذا الباب ، لا بأس بأن نوردها بنصها لأنها تغنينا عن كثير من الكلام . قال تحت عنوان « فى اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتنائهم بأمر الجهاد وسيرهم فى رعاياهم واستمالة قلوب مخالفيهم »

« أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتناؤهم بأمر الجهاد ، فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين ، وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً ! وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم ، فيجلس فى منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة (= التوديع) ، ويأتى القواد بالمراكب التى تحت المنظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمنجنيقات واللعب منصوبة فى بعضها ، فتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما يفعل حالة القتال ، ثم يحضر إلى بين يدى الخليفة المقدم والريس فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة ، وتنحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح ، فيكون لها فى بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركباً اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يساهمون فيه . وكان لهم أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم ، وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاث ، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه » .

وقد عقد الدكتور عبد المنعم ماجد فصلا طيباً عن البحرية المصرية فى العهد الفاطمى فى كتابه عن « نظم الفاطميين » . وسنورد هنا فقرات منه ، لأنه يصور لنا البحرية المصرية -- والإسلامية عامة -- فى أوجها فى شرق البحر الأبيض قبل الحروب الصليبية ، وهو يتمم ما قلناه عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ البحرية الإسلامية عامة .

أشار ماجد إلى ضعف الأسطول المصرى على أيام الطولونيين والإخشيديين ، ثم ذكر كيف أن مركز الفاطميين فى شرق البحر الأبيض فرض عليهم الاهتمام بالأسطول والبحرية ، وذكر -- رواية عن القلقشندى -- كيف أن « وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بجميع الشواطىء الساحلية ، مثل : الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافىء سوريا . ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل سوريا لم تبق لهم طول عهدهم ، فقد غلبهم عليها الصليبيون فى القرن الأخير من حكمهم » . ثم أشار إلى دور الصناعة فى مصر الفاطمية وقال : « وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة « دور الصناعات » فى عصر الفاطمى توجد فى العاصمة ، فكانت المقس التى أنشأها الخليفة المعز فى شمال القاهرة على ساحل النيل ، تقوم ببناء ستمائة قطعة ، كما كانت جزيرة الروضة التى عرفت فى العهد الفاطمى باسم « جزيرة مصر » تقدم أيضاً بانشاء المراكب البحرية .

« وقد وجدت أماكن أخرى متعددة فى مصر وفى الإمبراطورية لبناء المراكب ، فيروى المقريزى أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط بمدينة الإسكندرية ودمياط .

« وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضرورى لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففى مصر كانت تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط ، فى البهنساوية والأشمونية والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وهى ذات أعواد قوية تصلح فى عمل المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً فى الحصول على الخشب اللازم لأسطولها من البندقية ، مما دعا بيزنطة إلى الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم البندقية ، الذى اضطر

أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى مصر » .

ثم تكلم عن الأسطول ومراكبه فقال : « فيأتى فى طليعة مراكب الفاطميين فى مصر أسطول تجارى يملكه الخليفة ، فى غاية النشاط . فقد عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافى لمصر ، فى مفترق سير المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فأنشأوا أسطولا تجارياً كبيراً ، بقصد التجارة العالمية وبخاصة مع الهند . ويروى ناصرى خسرو فى رحلته بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مركب راسية فى تنيس ، عدا ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملكاً للخليفة . ولا ريب أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبنى فى دور صناعة الدولة ، وإن لم تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

« أما عن الأسطول الحربى ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : « الشوانى » ، جمع « شينى » أو « شونة » ، وهى من أهم قطع الأسطول الفاطمى وأطولها ، وتجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع وللهجوم ، وتحتوى على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء الحلو . و « الحراريق » جمع « حراقة » وهى من أكبر المراكب أيضاً ، وإن كانت أقل من الشونة حجماً ، وتستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو ، ولذلك كانت مزودة بالنفط الذى يرمى بالمنجنيقات أو بالسهام أو فى القوارير . و « البطس » جمع « بطسة » وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعاً ، وهى تستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وعلى الأخص الرجال ، فيروى المقريزى أن إحدى « البطس » كانت تحمل ألفاً وخمسمائة شخص . والمراكب المسماة « أغربة » جمع « غراب » وهى من المراكب الحربية شديدة البأس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التى كانت على شكل رأس غراب . و « المسطحات » جمع « مسطحة » أو « مسطح » ، وهى نوع من كبار سفن الحرب المسوحة . و « الطرائد » جمع « طريدة » ، وكانت تستخدم فى نقل الخيل . و « الشلنديات » جمع « شلندى » ، وكانت من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم فى نقل

البضائع . و « القراقير » جمع « قرقورة » ، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول . و « الحمالات » جمع « حمالة » ، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول .

« وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى مثل : « الطرادات » جمع « طراد » أو « طرادة » ، وهى سفن حربية صغيرة على هيأة البرميل، بدون سطح ، وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها . و « الشبابيك » جمع « شبك » أو « شباك » ، وهى من سفن الأسطول الصغيرة ، ذات ثلاثة قلاع ، وقد تسير بالمجاديف . و « الفلايك » جمع « فلوكة » ، وهى مراكب صغيرة سريعة تتحرك بالمجاديف . وكانت « القوارب » جمع « قارب » و « الزوارق » جمع زورق » ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهى مراكب من غير شراع ، وتستعمل — فى العادة — لنقل الأشخاص .

« وكانت الدولة تملك أسطولا نهرياً يسير فى النيل مثل المراكب التى يقال لها « عشاريات » جمع « عشارى » ، وكانت تسمى فى العصر المملوكى « حراقة » ، وتستخدم فى جمع غلات الدولة وغيرها . ويقول ابن الطوير بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى « دماميس » جمع « ديماس » أو « ديماس » برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار فى الدولة . وكانت « الشذوات » جمع « شذات » و « السميريات » جمع « سميرية »، تستعمل فى نقل المؤن والعساكر فى الأنهار. أما المراكب المسماة « علابيات » و « حمائم » و « سنابك » ، فكانت معروفة من قبل فى عهد ابن طولون وتسير فى النيل .

« ويشير القلقشندى ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمى ، إلى وجود أسطول صغير قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب فى مرفأ عيذاب ، كان يقوم بأعمال الحراسة فى البحر الأحمر وتنظيفة من القرصان .

« ويصف لنا ابن جبير ، الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين ، كيفية صنع المراكب التى كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى « جلاب » جمع « جلبة » فهى كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيط بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخل ،

ثم تسقى المراكب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش – وهو أحسنها لتليين الأعواد ، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ، وكانت هذه المراكب لخفتها تحمل على ظهور الجمال ، وتسير بالمجاذيف أو بالشراع » .

وقد نقلنا هذه الفقرة الطويلة لأنها تعطينا فكرة واضحة جداً عن هيأة الأسطول الفاطمى المصرى وسفنه ، وتصور لنا البحرية المصرية فى ذروتها قبل الصليبيات .

وجدير بالملاحظة أن أسلوب الحرب البحرية الذى جرى عليه المسلمون فى العصر الفاطمى ، كان هو نفس أسلوبهم الذى تكلمنا عنه عند كلامنا عن موقعة ذات الصوارى ، وهو نفس أسلوب الحرب البرية ، وفى ذلك يقول ماجد : « وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحرى المختلفة ، ولكننا نجهل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية ، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش . فيروى القلقشندى أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن القسى التى تشد بواسطة اليد أو الرجل ، أما عن أسلحة المراكب الكبرى فإنها كانت تزود على الأخص « بالمنجنيقات » و « العرادات » لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، و « بالكلاليب » ، وفائدتها أنها تلقى على مراكب العدو فيوقفونه ثم يشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه وكان الأسطول الفاطمى – مثل أساطيل الدول فى ذلك العصر – يستخدم النفط أو النار الإغريقية ، التى تكلمنا عنها فيما سبق ، فكان يستعمل نوعاً من النفط يسير على الماء دون أن ينطفىء ، فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو . وعلى العكس ، كانت المراكب الفاطمية تحتمى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى « لبوس » ، عليه غطاء يسمى « لبود » من جلود البقر الطرية أو من البسط ، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان . وليس من شك فى أن القطع البحرية الفاطمية كانت مزودة أيضاً بكل ما هو ضرورى للحرب فى البر ، فكانت المراكب تحمل الأسلحة التى تستخدم فى نقب أسوار الموانى المعادية ، مثل « الأبراج » و « الدبابات » و « السلاليم »

وحتى « الحبال » .

« ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام ، ضمن معدات أسطول صقلية ، فكان هذا الحمام – على ما يظهر – يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول ، أو بينه وبين القيادة العامة فى البر . أضف إلى أن مركب « رئيس الأسطول » كان يزود بفانوس خاص لتهتدى به المراكب الأخرى فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه » .

بيد أن ذلك كله ضعف شيئاً فشيئاً مع ضعف الدولة الفاطمية العام ، وخاصة خلال النصف الثانى نعهد المستنصر الطويل ، إذ تخلخلت نظم الدولة كلها وقلت اهتماماتها وعجزت عن موالاة البحر بالاهتمام اللازم . وكانت النتيجة أن طلائع الحروب الصليبية عند ما بدأت لم تجد فى حوض البحر الأبيض الشرقى من قوى المسلمين البحرية ما يقف أمامها ، وكان لهذا أثره البعيد فى تاريخ هذه الحروب . وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية المصرية لو كانت على هذا الحال من القوة أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لكان لتاريخ الحروب الصليبية كله اتجاه آخر .

ونعود بعد ذلك إلى عرض بقية أوجه النشاط البحرى لأهل المغرب الأسلامى ولا يتسع المقام لذكر التفاصيل ، ولهذا فسنكتفى بذكر أهم الوقائع وتواريخها .

فى سنة ٨١٢ هاجم المغاربة لمبيدوزا Lampedouza وبونزا وإيشيا على الشواطئ الإيطالية ، وتغلبوا على ما حاوله أهل أمالفى وغايته من ردهم .

وفى سنة ٨٣٦ شن أهل المغرب وصقلية حملة كبرى على جنوبى إيطاليا ، واحتلوا برنديزى Brundisium سنة ٨٣٦ وملكوا هذا البلد ثلاثين سنة من ٨٤٠ إلى ٨٧٠ . وفى سنة ٨٣٦ هاجموا نابلى وحاصروها دون جدوى . وفى سنة ٨٣٧ قاموا بغزوة كبيرة اجتاحوا فيها إقليم قلورية Calabria كله ، وخربوا مدينة كابوا Capua سنة ٨٤٠ ، واحتلوا بنفنتو – Benevent وحكموها خمس سنوات ٨٤٢ – ٨٤٧ ، وتخلصت منهم لفترة قصيرة عادوا إليها بعدها ، واستولوا على ثارنت Tarentum وحكموها أربعين سنة ٨٤٠ – ٨٨٠ ، واحتلوا كذلك بارى سنة ٨٤١ وظلوا فيها إلى ٨٧١ ، وغزوا روما وخربوا بعض أجزاء من

كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ، وفيما بين سنتى ٨٧٦ ، ٨٧٧ قاموا بغارة شديدة على ولاية كمبانيا Campagna ، وفى سنة ٨٨٣ تقدموا شمالى روما ووصلوا إلى مونت كاسينى وخربوها . وفى نفس الوقت نزلت جماعة من مهاجرة البحر الأندلسيين شاطئ إيطاليا الشمالى الغربى واجتاحت نواحى كثيرة من شمالى إيطاليا ووصلت إلى جبال الألب .

وفى سنة ٨٠٩ بدأ الأندلسيون فى غزو قرصقة وسردانية ، وكانت الأولى تابعة للبيزنطيين والثانية للفرنجة .

وفى سنتى ٨٣٤ و ٨٣٥ هاجم أسطول أغلبى خرج من صقلية جنوة وخربها ، وغزا أسطول الأغالبة من المغرب وصقلية قورصقة وسردانية مرة أخرى وثبتت أقدام الأغالبة فيهما إلى سنة ٨٣٠ ، ثم انتقلت إلى طاعة الفاطميين حتى سنة ١٠٠٣ ، ثم صارت إلى الأندلسيين وظلت فى أيديهم إلى سنة ١٠١٦ حيث بدأت قوات جنوا وبيزا المتحدة تهاجمها ، ولم تستخلصها من أيدى المسلمين إلا فى سنة ١٠٥٠ .

وفتح الأغالبة مالطة سنة ٨٢٤ وظلت فى أيدى المسلمين إلى سنة ١٠٩٠ حيث انتزعها منهم النورمان .

وفى سنة ١٣٠–٧٤٨ فتح والى إفريقية عبد الرحمن بن حبيب جزيرة قوصرة المعروفة ببنتلرية Pantelleria ، وثبت قدم الإسلام فيها بعد أن حاول ذلك قبله عبد الملك بن قطن القهرى والى الأندلس وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى. وقد ظلت فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها منهم رجار (روچر) النورمانى سنة ٤٨٤–١٠٩١ . وقد كانت قوصرة طول سيطرة المسلمين عليها كالدرع يقى تونس من غزوات النصارى والنورمانيين خاصة ، فلما سقطت صقلية فى يد أولئك الأخيرين لم يبق إلا قوصرة تحمى شواطئ تونس ، فلما سقطت هى الأخرى انحدرت الجبهة الإسلامية إلى شواطىء تونس وتعرضت سواحلها لغارات النورمانيين ، وحاول رجار مهاجمة « المهدية » أكبر المراكز البحرية الإفريقية إذ ذاك ، فنزل إلى الساحل وحاصرها سنة ٥١٧–١١٢٣ ولكن جيوش بنى زيرى ثبتت له وهزمته فى موقعة «الديماس» . وجدد النورمان محاولتهم سنة ٥٤٢–١١٤٨

واستولوا على « المهدية » ، ذلك الحصن الإسلامى ، فانهارت جبهة المقاومة الإفريقية ، وزاد الطين بلة اضطراب أمر المغرب كله عقب غزوة العرب الهلالية ، فطال أمد احتلال النورمانيين لشاطىء إفريقية (تونس) ، وقد صدق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب حين علق على ذلك بقوله : « وكان ذلك آخر عهد السلطان الإسلامى بجزائر البحر »[١] .

هذه صورة مجملة لنشاط أهل المغرب فى حوض البحر الأبيض الأوسط والبحر التيرانى ، وهى تعطينا فكرة عن هذا الجهد العظيم الذى قاموا به ، وهو جهد غير منظم ولا متصل لأن الدول الرسمية لم تعن به ، ولم تنتبه إلى ما يعود عليها من الخير من وراء السيطرة على البحر ، حتى صقلية لم يعنوا بها العناية الواجبة فضاعت من أيدى المسلمين وانصرفوا عنها وزالت آثارهم منها كأنهم لم يفتحوها يوماً ، إنما معظم الفضل فى ذلك الجهد يرجع إلى المغامرين وذوى البأس والمتحمسين من أهل شواطىء المغرب ومسلمى صقلية ، وهؤلاء من الممكن أن يكونوا خالصى النية فى الجهاد أو مجرد طامعين فى الغنم والسلب ، ومن هنا انفتح على المسلمين باب الاتهام بأعمال القرصنة ، وسنناقش ذلك فيما بعد .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن دول المغرب بطبيعتها ضعيفة فقيرة ، لقلة القوى البشرية والموارد اللازمة لإقامة الدولات والصمود فى ميدان ثقيل التكاليف كثير المطالب كسيادة البحر أمام دول أغنى وأقوى وأدرى بأمور البحر ، وإن الإنسان ليتأمل هذا الجهد المتعدد النواحى الذى قام به أهل المغرب على عسر ظروفهم واضطراب أمور السياسة فى بلادهم فلا يسعه إلا التعجب من اقتدارهم عليه رغم ذلك كله . وسوف يتغير مركز المغرب عند ما تدب الحياة فى أقصاه — ما يعرف الآن بمراكش — ويتسع مداه حتى يصل إلى أحواز النيجر وتدخل الأجناس البشرية الكثيرة الضاربة هناك رحاب الإسلام وتنتظم ضمن قواه ، هنا يتغير وجه التاريخ المغربى ويأخذ فى طريق القوة ، فيصبح درع الجبهة الغربية الإسلامية كلها ويتولى الدفاع عنها فى البر والبحر بعد انهيار الأندلس وخروجه

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، المجلة التاريخية المصرية ، جـ ٢ ، عدد ٢ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٥ وما بعدها .

من الميدان . وهذا كله يتمثل لنا فى قيام دول المغرب الأربع الكبرى : المرابطين والموحدين والحفصيين – وقد قاموا على أكتاف صنهاجة – ثم بنى مرين ، وهم زناتيون ، لكن ذلك يتخطى الحدود الزمنية التى رسمناها لهذه الدراسة : ما قبل الصليبيات .

ونعود إلى ما استطردنا عنه منذ قليل ، لنعرض فى إيجاز لتطور العلاقات بين إفريقية وأمم أوروبا النصرانية بعد ما كان فى انهيار الجبهة البحرية للأولى وتراجع مدى سلطانها إلى ما يسمى فى عرفنا الحديث بالمياه الإقليمية المغربية .

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٩٧٢ م . قامت بشؤون إفريقية دولة بنى زيرى الصغيرة ، وفى عهدها فقد المسلمون مراكزهم فى البحر الأبيض شيئاً فشيئاً ، ولم تصبح عملياتهم الحربية فيه عمليات منتظمة تهدف إلى غاية ثابتة ، بل ضربات هنا وهناك يقوم بها أهل إفريقية حيناً وأهل صقلية حيناً آخر وأهل الأندلس حيناً ثالثاً وهكذا . ومثال ذلك أن أهل إفريقية غزوا كاجلياري وپيزا سنة ١٠٠٢ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قام مجاهد الدانى صاحب الجزائر الشرقية – وهى جزائر البليار – ونهب پيزا ، وفى نفس العام انتقم البيزيون لأنفسهم فغزوا شواطئ الأندلس ، وفى سنة ١٠١١ قام الأندلسيون بغارة عنيفة على پيزا . وفى هذه الفترة نجد اسم مجاهد الدانى بارزاً فى تاريخ وسط البحر الأبيض وغربه ، وكان أولى بنا أن ندع الكلام عنه إلى الفقرة الخاصة بالأندلس ، ولكن سياق الحديث يستدعى ذكر أعمال مجاهد الدانى فى هذا المقام .

وهنا أيضاً نلاحظ ما لاحظناه أكثر من مرة فى دراستنا لأعمال المسلمين فى البحر ، وهو أن المصادفة تلعب دوراً هاماً فيها ، وكما فتح بنو الأغلب صقلية مصادفة واضطراراً فكذلك دخل مجاهد الدانى ميدان الكفاح البحرى . فقد كان الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس قد صار عند تفرق أمر الأندلس إلى جماعة من صقالبة بيت المنصور محمد بن أبى عامر المعروفين بالصقالبة العامريين ، ثم تقلص أمرهم أثناء الكفاح الطويل بين الطوائف حتى لم يعد بأيديهم إلا دانية . وضاقت أرض الأندلس بهم وخصومهم يحيطون بهم من كل ناحية ، ففكر

واحد منهم وهو مجاهد الدانى العامرى فى الاستيلاء على الجزائر الشرقية المعروفة البليار ، فانتقل إليها بقواته سنة ١٠١٥ ومكن لنفسه فيها واتخذها — مع دانية — مركزاً لنشاط بحرى كبير جعل اسمه يبعث الرعب فى الحوض الغربى للبحر الأبيض كله .

وقد فتح المسلمون هذه الجزائر لأول مرة سنة ٩٠٣ على يد عصام الخولانى ، كما سنرى بعد . وكانت قبل ذلك تابعة لدولة الفرنجة ، وقد فتح عصام ميورقة ومنورقة وبقيت يابسة Juiza بيد الفرنجة . وقد ظل عصام يحكمها باسم خلفاء بنى أمية الأندلسيين حتى مات وخلفه عليها ابنه . ولم يعن الأمويون بالجزائر الشرقية على أهميتها ، فظلت فى تبعيتهم الاسمية حتى انتثر عقد الخلافة وتفرق أمر الأندلس بين أمراء الطوائف واستقل العامريون بشرق الأندلس ، ثم سنحت الفرصة لمجاهد فغزاها سنة ١٠١٥ كما قلنا .

وقد تمكن هذا الصقلبى الأندلسى أن يسيطر على شواطىء الأندلس الشرقية ، ويملك الجزائر الشرقية ويحتل أجزاء من سردانية وقرصقة سنة ١٠١٦ ويوجه نشاطه كله إلى غزو سواحل إيطاليا وغالة ، بل إنه احتل ثغر لونى Luni على خليج سبيزيا Spezzia فى إقليم إتروريا بإيطاليا ، واتخذه قاعدة لأعماله الحربية فى إيطاليا . وقد توفى مجاهد سنة ١٠٤٥ وخلفه ابنه على ، فواصل سياسة أبيه ولكنه لم يستطع مواصلة الجهد أمام منافسات الطوائف ، فاستولى بنو هود على ما بيده .

وقد نشطت البابوية فى جمع قوى النصارى وتوجيهها لحرب مجاهد الدانى ورجاله ، وأصدر البابا يوحنا الثامن عشر منشوراً بابوياً يعلن فيه أنه يمنح جزيرة سردانية لمن يستخلصها من يدى مجاهد . وبعد ذلك بسنوات قلائل خطا البابا بنوا الثامن خطوة أخرى ، فقام بتجهيز حملة دفعت الخزانة البابوية نفقاتها وهدفها مهاجمة قاعدة مجاهد فى لونى ، فاجتهد الجنويون والبيشيون فى الاستيلاء عليها وتم لهم ذلك سنة ١٠١٥ . وفى السنة التالية ١٠١٦ وفق البابا بنوا فى عقد محالفة بين بيشة وجنوا توقفت بها العداوة بين الجمهوريتين إلى حين ، واتجهتا لحرب المسلمين واستخلاص السيادة على البحر التيرانى من أيديهم . وسارت قوات جنوة

وبيشة المتحدة وهاجمت سردانية فى نفس العام وهزمت مجاهداً هزيمة حاسمة ، وقد تقلص نفوذ المسلمين من هذه الجزيرة فى سرعة بعد ذلك لأن مجاهداً عاد إلى دانية ولم يحاول مطاولة بيشة وجنوة . وبعد وفاته سنة ١٠٤٤ — ١٠٤٥ م كاد يتلاشى كل أثر لسيادة المسلمين على سردانية ، لولا وقوع الخلاف بين جنوة وبيشة ، فقوى أمر المسلمين فى الجزيرة من جديد .

واستمر الأمر سجالا بين المسلمين والنصارى فى ذلك الحوض الغربى للبحر الأبيض طوال القرن الحادى عشر ، فنجد أسطولا إسلامياً يخرج من « المهدية » ويغزو إيطاليا الوسطى سنة ١٠٢٠ ويجمع غنائم وافرة ، وفى عودته لقيه أسطول بيشى واستولى على ما معه من الغنائم . وفى سنة ١٠٣٤ نجد قوات جنوية وبيزية وپروڤنسية تهاجم بونة فى إفريقية وتجتاح هذه الناحية وتعبث فيها فساداً ، وهكذا. ويستمر الأمر على ذلك الحال حتى يقوم البابا ليو التاسع بتوحيد البيشيين والجنويين من جديد ، ويوجههم إلى استخلاص سردانية من أيدى المسلمين ، وقد تم ذلك نهائياً سنة ١٠٥٠ ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى لضياع سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض .

وأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض ملقى على عاتق بنى زيرى أصحاب إفريقية وبنى حماد أصحاب القلعة ، وكانت لهم السيادة على جزء كبير من الجزائر . ولم تكن الدويلتان من القوة بحيث تستطيعان القيام بهذا العبء ، وكثرت غارات النصارى على صقلية وسواحل إفريقية ، فرأى بنو زيرى أنفسهم مضطرين إلى تغيير خطة العداء السافر ، وادخلوا فى علاقات سلمية مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية ثم مع النورمان بعد ذلك .

وليس إلى الشك سبيل فى أن بنى زيرى كانوا مستطيعين أن يقوموا فى البحر بدور عظيم ، فقد كان لهم بالساحل اهتمام كبير ، لولا اضطرارهم إلى توجيه كل قواهم إلى محاربة الزناتيين أولا والعرب الهلالية ثانياً .

ومن دلائل اهتمامهم بالبحر وشؤونه أن زيرى بن مناد هو الذى أنشأ مدينة الجزائر ، وقد كان موقعها والجزائر المقابلة لها فى البحر فى زمام قبيلة بنى مزغنا ، ولذلك كانت تسمى « جزائر بنى مزغنا » ، ثم اختصرت بعد ذلك إلى «الجزائر» .

وقد أنشأ أبناء عمهم بنو حماد — أصحاب قلعة بنى حماد وسادة المغرب الأوسط — ميناء آخر هاماً سيلعب دوراً عظيما فى تاريخ البحر الأبيض ، وهى بجاية Bougie أنشأوها سنة ١٠٧٢ وظلت معتصمهم ومعتصم فلول بنى زيرى جميعاً بعد هزائمهم وانهيار قواهم أمام الهلالية . وقد ظل بنو حماد محتفظين بشىء من سلطانهم فى بجاية حتى فتحها عليهم الموحدون وأدخلوها فى طاعتهم .

وقد وصلت سياسة الصداقة مع الجبهة النصرانية ذروتها فى عهد الناصر بن علفاس خامس أمراء بنى حماد أصحاب القلعة ، فقد ارتبط بعلاقات صداقة موصولة مع البابا جريجورى السابع ، وسمح له بإقامة أسقف لقرطاجنة وأكرم النصارى فى بلاده ، بل جمع من كان فيها من آسرى النصارى وردهم إلى بلادهم وقد كتب إليه جريجورى خطاباً يدل على ما كان يكنه نحوه من تقدير ، ويكشف لنا عن جانب من جوانب سياسة هذا البابا الكبير ، بدأه بقوله :

« من الأسقف جريجوريوس خادم	Gregorius, episcopus, servus
خدام الله إلى الناصر ملك	servorum Dei, Anazir, regi
مرطانية من الولاية السطيفية	Mauretaniae Sitiphiensis
فى إفريقية ، السلام	provinciae, in Africa, solutem
والبركة الرسولية [١]	et apostolicam benedictionem

بيد أن الجبهة الإسلامية زادت ضعفاً بعد دخول العرب الهلاليين المغرب وقضائهم على دولة بنى زيرى . ويبدو أن الجمهوريات الإيطالية كانت ترقب حوادث المغرب بعين اليقظة ، ففى سنة ١٠٥٧ — وبينما الهلاليون يحاصرون المعز بن باديس فى المهدية — اقتحمت عمارة إيطالية الميناء وحاولت دخوله ، وبعد ذلك بثلاثين سنة — أى فى سنة ١٠٨٧ — اقتحم البيشيون هذا المعقل

(١) Mas Latrie, op. cit. Document VII. pp. 7-8.

وكان الناصر قد اختط بجاية سنة ١٠٧٦ وجعلها عاصمة إمارة بنى حماد بدلا من القلعة فى سنة ١٠٩٠ . ومن بجاية سيطر على المغرب الأوسط كله ، وهو الذى يعرف فى التقسيم الإدارى الرومانى بمرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis ، وإلى هذا يشير جريجورى فى مستهل خطابه . وقد ظل بنو الناصر سادة بجاية والمغرب الأوسط حتى استنزلهم الموحدون وحلوا محلهم سنة ١١٥٣ .

الإسلامى الحصين وخربوا البلد . وقد كان لهذا الحادث دوى عظيم فى نواحى أوربا ، لأن المهدية كانت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية كلها كما قلنا . وفى سنة ١٠٦٣ هاجم البيشيون پلرم فى صقلية ونهبوها نهباً ذريعاً ، وقد تيمنوا بهذا الغنم فبدأوا بناء كاتدرائية بلدهم الباقية إلى اليوم من مغانم هذه الغزوة .

وبدا بوضوح أن ما بقى من الجبهة الإسلامية فى وسط البحر الأبيض وغربه يتصدع تماماً ، وكان العامل الأكبر فى هذا التصدع هو فشل أهل إفريقية فى حكم صقلية من ناحية ، وعجز مسلمى صقلية عن تنظيم أمور أنفسهم وتوحيد جبهتهم من ناحية أخرى . وبعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر بدا بوضوح أن أمر الإسلام فى صقلية إلى ضياع ، فقد اشتد التفرق بين المسلمين الصقليين إلى درجة خشى معها المعز بن باديس الزيرى من أن يستغلب النصارى الجزيرة ، فأرسل حوالى سنة ١٠٣٥ حملة لتقوية أهل صقلية أمام أعدائهم . وقد بلغ من قصر نظر رؤساء صقلية أن أنكروا هذا العمل من المعز وتوجهت جماعة منهم فقابلت ملك النورمان فى أپوليا واستنصرت به على المعز ! وكان النورمان قد انتزعوا جنوبى إيطاليا من أيدى البيزنطيين وتطلعوا إلى صقلية . وفى سنة ١٠٦١ عبرت قوة استطلاعية نورمانية خليج مسينا ونزلت صقلية عند ميلازو ، وتغلبت على قوة صغيرة من المسلمين حاولت أن تعترض طريقها . وكان يقود هذا البعث رجار أخو روبرت جسكارد ملك النورمان ولم يكن لديه أكثر من مائة وستين فارساً . وقد شجعه هذا النجاح فعاد إلى قلورية Calabria وجمع قوة كافية ونزل صقلية فى العام التالى ، واستولى على مسينا دون مقاومة تذكر ، ثم استولى على السواحل الشمالية والشرقية للجزيرة . وفى العاشر من يناير ١٠٧٢ استولى على پلرم عاصمة صقلية ، وتم له إخضاع بقية الجزيرة بعد ذلك . وصارت كونتية نورمانية يحكمها رجار باسم أخيه روبرت . وقد حاول تميم بن المعز ابن باديس أمير إفريقية استعادة الجزيرة دون جدوى ، واضطر آخر الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ، وعقد مع روجر معاهدة اعترف له فيها بملكية صقلية .

بهذا ضاعت هذه القاعدة الإسلامية الكبرى التى كانت تمكن المسلمين

من القبض على ناصية البحر الأبيض ، وأصبحت حدود دولة الإسلام الغربية عند شواطئ إفريقية ، وعاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر الأبيض إلى منطقة النفوذ الأوربية ، وأصبحا طريقاً آمنا للجمهوريات الإيطالية ، واتسعت آمال شعوب غربى أوربا فى مهاجمة المسلمين فى بلادهم ، وخاصة بعد تصفية الجزء الأكبر من الأندلس . وذلك كله يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية ، التى بدأت فى الجبهة الأندلسية ثم انتقلت إلى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، ثم امتدت بعد ذلك إلى بلاد المسلمين فى المشرق .

هذا هو تاريخ المسلمين فى حوض البحر الأبيض إلى قبيل الحروب الصليبية ، وقد ألممت بما كان لسيادة المسلمين على مياه هذا البحر من تأثير على الدولة الإسلامية عامة وعلى مصر والشام والمغرب كلا على حدة . ولم أتعرض للحقيقة الكبرى التى نتجت عن ذلك وهى تحول هذه البلاد كلها إلى بلاد إسلامية الدين عربية الثقافة ، تفصل بينها وبين أمم الشواطىء الشمالية لهذا البحر عوامل العقيدة والثقافة واللغة والاتجاه ، فقد حل الإسلام فيها كلها محل النصرانية وغيرها ، وأصبحت العربية لغتها الأساسية الغالبة على أهلها . لم أقف عند تلك النتيجة الكبرى لأنها أظهر من أن نبدى فيها ونعيد . ولم أقف كذلك عند آثار استيلاء المسلمين على الأندلس على البحر الأبيض ، لأن مسلمى الأندلس لم يتطلعوا إلى سيادة البحر إلا أيام مجاهد الدانى ، أما طوال عصرى الإمارة والخلافة فقد كانت عناية الأندلسيين بالبحر عناية دفاع لا عناية غزو . وقد أنشأت الإمارة الأموية القرطبية أسطولها بعد نزول النورمان شواطئها على أيام عبد الرحمن الأوسط ، ولم يهتم الأندلسيون بمغازاة شواطئ أوروبا أو بالمتاجرة معها ، بل اقتصر نشاطهم التجارى والحربى أيضاً على بلاد المغرب وما قام فيه من دول ، والفاطميين خاصة . ومن هنا لم يكن للأندلس أثر كبير على الموقف العام فى البحر الأبيض ، فيما خلا ما هو ظاهر بداهة من تحول الشواطئ الإسبانية إلى شواطئ إسلامية متصلة بالعالم المغربى والمشرقى منقطعة عن الشواطئ الأوروبية .

ل ــ الأندلسيون والبحر الأبيض :

لم يحاول أمراء قرطبة الأمويون الإدلاء بدلوهم فى شؤون الملاحة فى البحر الأبيض ، بل لم يفكروا فى إنشاء أسطول لدولتهم إلا بعد أن فاجأها النورمانيون بغزواتهم على عهد عبد الرحمن الأوسط ، فاجتهدوا فى بناء السفن وترتيب الأسطول فتم لهم ذلك بأيسر مؤونة . وبعد سنوات قلائل ، عندما أعاد النورمانيون الكرة وأرادوا مهاجمة الأندلس فى سنة ٢٤٥ / ٨٥٩ ــ ٨٦٠ « وجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية فى الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور « باجة » فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبى والعدة » . والواقع أن المراجع تؤكد اهتمام عبد الرحمن الأوسط بإنشاء دور الصناعة ومخازن السلاح « بعد سنة المجوس » كما سنرى فى قرمونة ، وأنشئت على سواحل الأندلس الرباطات وانجفل إليها المرابطون والمتطوعة ليرابطوا حرساً على شواطىء المسلمين . وأنشئت فى إشبيلية دار صناعة كبيرة ، ونهضت البحرية الأندلسية نهضة سريعة مردها إلى استعداد أهل شواطىء الأندلس للخدمة فى البحار ، فقد كان للأندلس قبل ذلك التاريخ نشاط بحرى ، ولكنه غير رسمى ، نشاط لا تحدثنا عنه مراجعنا العربية وإنما نجد صداه فى المراجع اللاتينية .

فتحدثنا « حوليات مملكة الفرنجة » أنه فى سنة ٧٩٨ هاجمت جماعة من المسلمين ــ تصفهم بأنهم قراصنة ــ جزيرتى مايورقة ومنورقة ونهبتهما ، وفى الوقت نفسه يحدثنا إجنهارت فى « حياة شرلمان » أن شرلمان اتخذ إجراءات لحماية شواطىء ولايتى نربونة وسبتمانية من غارات المسلمين .

ومن المناسب هنا أن نذكر فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) ، فإن بعض المراجع تذهب إلى أنها فتحت على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والغالب أن جماعات من المسلمين نزلتها وسكنتها شيئاً فشيئاً ، لأن المراجع تحدثنا أنه قامت فى الجزائر ثورة سنة ٢٣٤ــ٨٤٨ ــ ٨٤٩ على المسلمين فأرسل عبد الرحمن الأوسط أسطولا من ثلاثين قطعة أخمد الثورة وأعاد الجزيرة إلى الطاعة . ويبدو أن هذه

الحملة لم تكن غزواً بالمعنى الصحيح لأن أبا عبيد البكرى وابن خلدون يذكران أن فتح هذه الجزائر كان فى عهد الأمير عبد الله بن محمد سابع أمراء المروانيين بالأندلس على يد رجل أندلسى يسمى عصام الخولانى سنة ٢٩٠ /٩٠٣ وكان رجال الأسطول والفاتحون جميعاً من المطوعة والمرابطة، وهذه ملاحظة لها أهميتها، لأنها تدل على أن معظم رجال البحرية الأندلسية كانوا من أولئك المرابطين والمجاهدين ، مما يؤكد ما ذكرناه من نشاط مرابطة الأندلس البحرى ، ويجعلنا أميل إلى الظن أن الأمير عبد الله عندما أنشأ البحرية اعتمد فى ذلك على أولئك المجاهدين . وكان عددهم فى الغالب كبيراً . وقد أتم عصام الخولانى فتح الجزر وبنى فيها المساجد وحكمها باسم الأمير عبد الله ثم خلفه عليها ابنه عبد الله ابن عصام وأقره الناصر فى حكمها . وقد ظل يحكمها حتى سنة ٣٥٠ /٩٦١ حين اعتزل الحكم وخرج إلى مكة حيث قضى بقية حياته ناسكاً ، مما يؤكد مرة أخرى غلبة الروح الدينى على مجاهدة البحر الأندلسيين .

وكانت سواحل الأندلس الغربية عامرة بالنشاط من أول الأمر ، وكانت السفن رائحة غادية بين ثغور الجنوب الشرقى مثل لقنت والمرية والنكب وبلاد العدوة الإفريقية مثل نكور ومرسى فروخ وهى الميناء الرئيسية لدولة بنى رستم أصحاب تاهرت . أى أن النشاط البحرى الإسلامى أخذ وجهتين : وجهة سلمية هدفها النقل والتجارة مع بلاد إفريقية ، ووجهة حربية هدفها مهاجمة الشواطئ الأوروبية . وقد كان النشاط فى كلتا الوجهتين عظيماً كما يفهم من المراجع . ومن الثابت أن معظم الملاحين كانوا من المولدين والمتعربين والبربر .

وقد نشأت على طول الساحل الشرقى للأندلس ثغور عامرة بالنشاط احتشدت فيها جماعات من الملاحين والتجار والمرابطين ، وكانت أعمر المناطق — كما يفهم من جغرافية البكرى — هى الواقعة بين لقنت Alicante وأكيلة Aquila . ، وكانت أهم تلك المراكز البحرية اسكمبرة Escombera وهى على جزيرة فى البحر فى مدخل خليج قرطاجنة الأندلسى التى تعرف بقرطاجنة الحلفاء . وكانت هذه الجماعات منظمة تنظيماً يذكرنا بنشاط المدن التجارية الإيطالية فى أول نشأتها ، فكان التجار والملاحون ينظمون أنفسهم جماعات جماعات تعمل

معاً ، وكانت كل جماعة تعقد الاتفاقات مع بربر الشاطئ الإفريقى للنزول فى أرضهم فى أمان والحصول منها على المتاجر التى تريد .

وكان الأندلسيون يبحرون إلى إفريقية فى الخريف ، ويقيمون هناك الشتاء ويعودون إلى الأندلس بالمتاجر مع الربيع . وكانت جماعات التجار فى كل ميناء فى الأندلس تختار من بينها « عريفاً » يمثلها يقيم لدى القبائل البربرية لينظم أمور التجارة كما كان قناصل المدن الإيطالية يفعلون فى الموانى . وكانت جماعات من تجار الشواطئ الإسبانية تهاجر إلى إفريقية وتعمر ثغورها أو تنشئ ثغوراً جديدة ، ففى سنة ٢٦٢ /٨٧٥ أنشأ نفر من الأندلسيين ميناء يسمى تنس الجديدة على مقربة من تنس الإفريقية ، وفى سنة ٢٩٠ /٩٠٢ نزلت جماعة أندلسية أخرى على رأسها رجل يسمى محمد بن أبى عون بن محمد بن عبدون ميناء وهران وعمرته وبعثت فيه النشاط ، وهكذا .

وكان يحدث أن القبائل الإفريقية تعدو على المستعمرة الأندلسية وتنهبها ، فيحتل الأندلسيون الموقع بالقوة ، كما حدث فى وهران سنة ٢٩٩ /٩١١ . بل يذكر البكرى أن الأندلسيين كانوا مسيطرين على عدد كبير من ثغور إفريقية مثل بونة وبجاية ومرسى الدجاج .

م — بجّانة ، جمهورية بحرية إسلامية أندلسية :

وألطف مثل لهذا النشاط البحرى الأندلسى هو اختطاط نفر من « البحريين » لميناء بجّانة المعروفة اليوم باسم Pechina . وأصل هذا الميناء موضع بسيط على الساحل الأندلسى الجنوبى على مصب وادى أندرش Rio Andarax شرقى المرية . وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط قد عمد إلى جماعة من العرب اليمنيين النازلين فى هذه الناحية بأن يرابطوا على الساحل ويحرسوه من نزول المجوس (النورمانيين) ، وفى مقابل ذلك أقطعهم سهل وادى أندرش الأدنى . وكانت جماعات من « البحريين » الأندلسيين تخرج من المرية إلى إفريقية وتعود إليها . ويبدو أن العرب اليمنيين اعتدوا عليهم أو آذوهم فى تجارتهم ، فرأى هؤلاء أن يتفقوا مع العرب على أن يبتنوا لأنفسهم قصبة ومخازن لمتاجرهم عند خليج بجانة ويسمى بلغة الأندلسيين « مرية بجانة » . وأذن لهم العرب

فقاموا بإنشاء القصبة ونظموا لأنفسهم حكومة يختارون رجالها من بين أنفسهم كما كانت الجمهوريات الإيطالية تفعل . وقد بدأ أولئك « البحريون » فى بناء مدينتهم وتنظيم أنفسهم من عام ٢٧١ /٨٨٤، بل يذهب البكرى إلى أنهم حرصوا على أن تكون بلدتهم أشبه البلاد بقرطبة فى هندستها ، ومن ذلك أنهم وضعوا على باب بلدتهم تمثالا للعذراء يشبه ذلك الذى يقوم على مدخل قنطرة الوادى المؤدية إلى قرطبة ، وهذه الملاحظة تدل على أن نفراً من أولئك « البحريين » كانوا نصارى ، أقاموا حول بلدهم حصناً وبنوا لأنفسهم قصبة ومساجد ، وانجفل إليهم الناس وعمر البلد بالناس وقامت فيه مناسج الحرير . ومما يؤكد ذلك قول ابن حيان فى حوادث سنة ٢٧٦ :

« وفيها أيضاً خاطب البحريون — الذين اختطوا مدينة بجانة بالساحل القبلى ، واتخذوها قاعدة لهم فرضة لأهل العدوة من تلقائهم : عملوا ذلك آخر أيام الأمير محمد والده ، وتزيد عملهم فى تمهيدها من بعده — فكتبوا إلى الأمير عبد الله ، عند جلوسه فى الخلافة بعد ، يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البنيان حوالى قصبتهم بجانة والتوسع فى أعراضها لتكاثر الناس عندهم ، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك . فأسعوا الاختطاط بأرض بجانة صدر خلافة عبد الله ، حتى اتخذوا بها عشرين حصناً ، مثل : وادى بجانة والحامة والخابية وبرشانة وعالية وبنى طارق وحصن ناشر ، وغيرها ؛ حموها وأوطنوها هم ومن نزل بهم ، وجاءهم الناس من كل جانب ، فأمنوا عندهم وكثروا ببلدهم » ، مما يدل على إزهار البلد واتساعه .

ويحدثنا ابن حيان فى خبر آخر عن بعض أحوال بجانة ، وحديثه يدل على أن البلد كان يحكم نفسه بنفسه، وأن أهله كانوا يختارون منهم رئيساً يقوم بشؤونهم ، وأن سفن النصارى كانت تحاول مهاجمة البلد وأذاه على غير جدوى ، وسأورد خبر ابن حيان — على طوله — لأنه يلقى ضوءاً عظيماً على أحوال تلك « الجمهورية » التجارية الأندلسية ، قال :

« قال عيسى : وفيها غزا سوار بن حمدون المحاربى — أمير العرب بغرناطة من كورة البيرة — البحريين الذين اختطوا مدينة بجانة بأمر الأمير المنذر وأخيه

الأمير عبد الله ، وقد بلغه حسن حالهم فيها واجتماع الناس إليهم واستخفافهم بمن جاورهم من العرب الغسانيين واستطالتهم عليهم وخوفهم منهم على أنفسهم لقلة عددهم ، فقصدهم سوار فى عرب البيرة المنتزين معه إلى حصن غرناطة ، طمعاً فى انتهاز الفرصة منهم وإخراجهم عن موطنهم بجانة والانتصار لقومه الغسانيين منهم ؛ وكان عامل السلطان يومئذ على هؤلاء البحريين رجلا منهم اسمه عبد الرزاق بن عيسى ، قد طار له الاسم بحسن السيرة وجودة الضبط والحزامة مع الغلظة على أهل الشر والذعارة والمبالغة فى عقوبة من ظفر به منهم ، حتى إن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلا يكاد يضيع شىء منها ، وذلك كان من أعظم أسباب اجتماع الناس إلى بجانة من الآفاق ، واغتباطهم بحلولها وسكونهم إلى ضبط أميرها عبد الرزاق وحمايته وتحصينه الفروج والأموال ، وسعيه فى توسعة الغارة فى ما حول بجانة حتى قامت فيها حصون كثيرة وقرى آهلة فى « الأسناد » وفى « نشارة » وغيرهما ، وحافظ على رعاية من قصد بلده ورغب فى مجاورته ، فكثر الناس لديه واغتبطوا به وبجواره ، وحسده كثير ممن جاوره على حسن حاله ، فقصده سوار فى ذلك الوقت طمعاً فيه . فلما علم عبد الرزاق بخبره رهب شداته وذهب إلى مداراته ؛ فأخرج وجوه البحريين أصحابه إلى العرب الغسانيين جيرانهم ، يستذمون بذمة جيرتهم ويستصفحونهم عن إجرام سفهائهم ويستشفعون بهم إلى سوار ابن عشيرتهم ، ويسألونهم لقاءه واستلطافه لهم ووعظه فيهم ، والرغبة إليه فى الانصراف عنهم ومواثقته على إجمال عشيرتهم ، فأسعفهم الغسانيون بذلك ، وخرجت جماعة من وجوههم إلى سوار ، منهم : سعيد بن أسود ، ، وخشخاش ابنه ، ومحمد بن عمر بن أسود ابن أخيه — وكان مكفوفاً — وأبوه الأوهم بن مخلد الغسانى وغيرهم ، فلقوا سوارا وكلموه واستلطفوه حتى انصرف عنهم وهلك على نية ذلك . رصار مكانه سعيد بن جودى فعاد البحريون إلى التمرس بالغسانيين — الذين كانوا شفعاءهم — والتمرس بهم والتهويس بما كان منهم فى مدافعة سوار عنهم ، حتى استحال الغسانيون عليهم وأنفوا من استطالتهم ، فكتبوا إلى ابن جودى يشكونهم واستنهضوه لغزوهم ،

وقصده بعضهم لما أبطأ عليهم محركاً ، فخف معهم وجاء إلى بجانة — وهى مدربة لم يضرب بعد عليها سور — فحاربهم فيها أياماً قارشوه فيها فلم يظفر بهم بطائل . وبينا هم على ذلك إذا احتل بهم شنير — قومس أنبورس من بلد الفرنجة — فى خمسة عشر مركباً أرفأت بساحل المرية فرضة بجانة ، فاحترق بها كثير من مراكبهم وغيرها ، وانتشرت بالغارة هنالك حتى قتلت خلف بن زهرى بالحوض ، وكان من أعلامهم ؛ فخرج جميع البحريين نحو المرية ليلا ، فلما أشرفوا على المرية هابهم العلوج فانقبضوا وألووا إلى المتاركة ودعوا إلى المفاداة والمبايعة ، فأجابهم البحريون إلى ذلك . وتم صلحهم على يدى عبد الرحمن بن مطرف الحاج صاحبهم ، وكان منذ وقعت عين العلج شنير عليه — وكان وسيماً جميلا حسن الملبس — فمال العلج إليه فأذنه وقلده عقد صلحه مع قومه ، وأجابه إلى وما التمسه وقارضه (sic) فيما اشتهاه ، فانقضى ما كان بينهم وبين العلج من يومهم وانصرف عنهم بمراكبه ، ففزعوا لابن جودى ومن معه — رقد ظن ابن جودى أن مدداً جاءهم — فرحل عنهم مسرعاً ولم يقم عليهم ، فثبتوا عزة بموطنهم . وقد طاولهم — بانصراف ابن جودى وانصراف صاحبه سوار قبله عنهم — اسم عظيم فى الباس والقوة رفع عنهم الطماعية ممن حولهم من ذباب الفتنة ، فكفوا فيما بعد عن التعرض لهم ، فضربت حاضرتهم بعطن وعمر قطينها وكثر أهلها واتسعت عمارتها وحسنت حال من فيها ، فلحقت بكبار أمصار الأندلس وحمت استعبادتها من قبل البحر فجل قدرها» .

وقد استمرت بجانة عامرة حتى سنة ٩٥٥/٣٤٤ عندما نقل عبد الرحمن الناصر عاصمة كورة المرية إلى ميناء المرية نفسها وعنى بها وأنشأ فيها المبانى والمصانع والمساجد ، فانتقل إليها الكثيرون من أهل بجانة وبدأت هذه الأخيرة تخمل ، وأخذ أمرها ينحط فى عهد الحكم المستنصر . وفى القرن الحادى عشر نجدها قد أصبحت قرية صغيرة وفقدت أهميتها .

ن — ماتسميه المراجع النصرانية بأعمال قراصنة المسلمين قبل الحروب الصليبية :

كان للأندلسيين إذن نشاط بحرى عظيم : كانت لهم أساطيل قوية تحرس

الشواطئ حراسة يقظة دائمة ، وكانت لهم أساطيل تجارية تتاجر مع المغرب وتنقل الناس والبضائع إلى شواطئه ، وكانت لهم جماعات من مجاهدة البحر تغزو شواطئ البلاد النصرانية وترد أذاها عن بلاد المسلمين . والمراجع اللاتينية تصف هذه الناحية الأخيرة من نشاط الأندلسيين البحرى بأنه نشاط قرصان ، وهو — فى الواقع — لم يكن كذلك تماماً . ومن المناسب أن أنقل هنا آراء للأستاذ ليڤى پروڤنسال تلقى ضوءاً على هذه الناحية الهامة من تاريخ المسلمين البحرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، قال بعد أن تحدث عن سفارة أرسلها أوتو الإمبراطور التيوتونى إلى عبد الرحمن الناصر سنة ٩٥٠ يسأله فيها أن يبذل جهده فى كف أذى « قراصنة » الأندلسيين عن شواطىء البحر الأبيض وغاراتهم على ما يلى هذه السواحل من بلاد فى غالة وشمالى إيطاليا وسويسرا :

« ومن المناسب هنا أن نفتح شَوْلتين نذكر بينهما شيئاً عن نشاط قراصنة الأندلس فى البحر الأبيض خلال القرن العاشر ، وأن نتتبع — بوجه خاص — الأوديسية الفذة التى قام بها جماعة من غزاة البحر المغاربة ، الذين نزلوا عند فراكسينتوم Fraxinetum وأسسوا « دولة إسلامية غربية مقحمة فى صميم بلاد النصرانية » ، قدر لها أن تظل قائمة بضع عشرات من السنين قبل أن يتيسر القضاء عليها . ومن الواضح أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين عن هذه القرصنة إذ أنها لم تكن منظمة تنظيماً رسمياً ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها ، ولكنها كانت تتغاضى عنها بل تشجعها ، بخلاف القرصنة المغربية فى العصور الحديثة ، إذ أن دول المغرب كانت تنظمها وتشرف عليها . ومن الحق أن نقرر هنا أن الدويلات المسيحية كانت تقف نفس موقف الدولة الأموية من رعاياها الذين كانوا يغيرون على شواطئ المسلمين وسفنهم . ولم يكن قراصنة قطلونية وأمبورياس Ampurias وروسيون Rousillon بأقل خطراً على الملاحين الآمنين من قراصنة الأندلسيين ، بل إنهم لم يكونوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى .

ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئاً آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغازون الصارى بدافع دينى ، وكذلك لا تستطيع القرصنة المسيحية

أن تنسب نفسها إلى الكنيسة أو المسيحية . وقد كانت كلتاهما خطراً إنضاف إلى اخطار الملاحة أثناء العصور الوسطى المتقدمة ، كانت نوعاً من القدر الذى يلاقيه راكب البحر فى تلك العصور . ولدينا ما يبرر القول بأن معظم أولئك الذين كانوا يقطعون البحر من المسلمين لم يكونوا من العرب أو البربر ، لقلة ما كان لدى هؤلاء الأخيرين من المواهب اللازمة لراكب البحر . ويغلب على الظن أنهم كانوا من المولدين أو من مستعمريى الأندلس النصارى من رعايا خليفة قرطبة ، لا يتحدثون العربية وإنما لهجتهم الرومانية المعروفة بعجمية أهل الأندلس ، مثلهم فى ذلك مثل البحريين الذين أنشأوا اتحاد بجانة فى القرن التاسع . ولسنا نقول هذا على سبيل التبرير لأعمال قطاع البحر من المسلمين ، ولكننا لسنا نرى من العدالة أن نصف أعمالهم دون أن نذكر فى نفس الوقت أن المسيحية الوسيطة لم تخل من أمثالهم . ولا شك أن هؤلاء الأخيرين لم يبلغوا من العتو والصيت المرهوب ما بلغه أمثالهم من الأندلسيين ، ولكن أفاعيلهم كانت كثيرة أيضاً ، ويكفى أن تتصفح معاجم التراجم الأندلسية حتى تتبين أنهم كانوا يصيبون أهل الأندلس وينزلون ببيوتهم من الخراب والذعر والقتل ما يربو بكثير على ما كنا نحسبه عادة .

« وكانت مهاجمة السفن فى البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم أمراً لا دخل فيه للملوك ، نصارى كانوا أو مسلمين . ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطئ ممتلكاتهم ، إلا فى الحالات التى يصبح هذا النزول صريحاً خطراً على أراضيهم . وكان لابد لهم فى هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة ما يستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة . ولكن الغالب أن عبء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطئ أنفسهم . كان عليهم أن ينظموا أمور الحفاظ على أنفسهم وإلا تحملوا عواقب إهمالهم ، فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحرس والحماية ، فينشئوا المراقب العالية ليكشفوا المقبل من البحر من بعيد ، وأن ينظموا جبهة بحرية حقيقية ، وأن ينقلوا قراهم ومساكنهم إلى المرتفعات القريبة من الشاطىء واتخاذ ما يمكن للتحرز من أخطار البحريات المعادية . هذا كله كان قائماً على شواطئ المسيحية والنصرانية ، ولم يكن مع

ذلك كافياً لرد أطماع أولئك الذين كانوا يعيشون من القرصنة .

« فإذا لم يقنع أولئك القرصان بغنائم الضربات السريعة التى لا تدوم أكثر من ساعات ، وطمعوا فى التوغل فى داخل البلاد كان الخطر أشد وأعظم . وكان القرصان ينجحون فى هذا التوغل عن طريق دخول مصبات الأنهار والتصعيد فى مجاريها ، كما كان النورمانيون يفعلون ، أو النزول فى موضع من الشاطئ يختارونه مقدماً ، والاستيلاء على موضع حصين قريب يشنون منه الغارات على الأراضى المجاورة . وكان القراصنة نادرا ما يتبعون أسلوب النورمان ، أى دخول مصبات الأنهار ، وإنما كان الغالب أن يلجأوا إلى الطريقة الأخرى ، طريقة النزول على الساحل بالقوة والتحرز فى موضع حصين ، وكان ذلك يحتاج إلى جرأة ويتعرض صاحبه لخطر أشد . وهذا هو الذى فعلته جماعة من المغامرين نزلوا عند فراكسينتوم على شاطئ پروڤانس وتحرزوا فى موضع هناك فى العشرات الأواخر من القرن التاسع الميلادى .

س — أوديسية ڤرالينقوم :

« وتحدثنا بضع فقرات من « حوليات سان برتان » Annales de Saint Bertin بأن نفرا من قراصنة المغاربة les Maures — وهذه هى التسمية التى كانت تطلق على قراصنة المسلمين إذ ذاك — دخلوا مصب نهر الرون وصعدوا فيه بضع مرات خلال النصف الثانى من القرن التاسع . ففى سنة ٨٤٢ وصلوا إلى قريب من آرل Arles ونزلوا فى موضع على شاطئ النهر ، ومضوا ينهبون ما وصلت إليه أيديهم ، ثم عادوا إلى سفنهم ورجعوا أدراجهم دون أن يصيبهم أذى . وحدث هذا مرة أخرى سنة ٨٥٠ ولكن رياحاً شديدة حالت بينهم وبين العودة إلى سفنهم فاستؤصلوا عن آخرهم . وفى سنة ٨٦٩ تمكنت جماعة أخرى من أولئك المسلمين من النزول والتحصن عند كامارج Camargue وتمكنوا من أسر « روتلاندوس » Rotlandus أسقف آرل ، وكان قد توجه لردهم على رأس قوة من المحاربين ، وقد مات الأسقف عقب أسره بقليل بينما كان آسروه يفاوضون فى أمر فديته ، فاحتالوا للحصول على الفدية رغم موته بإجلاسه ميتاً

على كرسي لابساً ملابسه الكنسية وأنزلوه إلى البر على هذه الصورة وحصلوا على الفدية .

ثم يورد الأستاذ پروڤنسال بعد ذلك تفاصيل تلك المستعمرة الإسلامية فى فراكسينتوم : « فيما بين سنتى ٨٩١ و ٨٩٤ تمكنت جماعة من قرصان الأندلسيين — فى ظروف لم نتوصل إلى الآن إلى معرفتها — من النزول فى خليج سان ترو پيز Saint Tropez على شاطئ پروڤانس وتحصنوا فى جبل فراكسينتوم المطل على الخليج ، وهذا الموضع هو المعروف اليوم باسم جارد فرينيه Garde Frienet . ثم أقبلت جماعات أخرى من الأندلسيين وانضمت إليهم ومضوا يعبثون فى نواحى كونتية Frejus ينهبون ويحرقون ويقتلون ، ونهبوا كبرى مدنها ، ثم أوغلوا فى منطقة مرسيليا خربوا كنيسة سان ڤيكتور Saint Victor المشهورة ثم صعدوا مع نهر الرون ونشروا الرعب والخراب فى مقاطعتى ڤالنتان Valentin وڤين Vienne . وفى السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم حتى سفوح جبال الألب ، وأحرقوا دير ڤوڤاليز Vovalaise على مقربة من سوز Suze ، وملكوا نواصى ممرات الجبال وتربصوا للسفار والحجاج الذاهبين إلى رومة ، وثقلت وطأتهم وكثرت أفاعيلهم فى ناحيتى أمبرن Embrundan وجريز يڤودان Graisivan . وشجعهم هذا النجاح فتوغلوا فى الوديان الإيطالية دون خوف ، وخربوا دير أولكس Aulx وتوغلوا فى پيدمونت حتى أكى Acqui وأستى Asti .

« وكان مركزهم فى سنة ٩٣٣ كما يلى : تقوم فرق صغيرة خفيفة منهم بضربات سريعة خاطفة فى الإقليم كله ، بينما تتحصن كتلتهم فى إقليم فراكسينتوم الجبلى على مقربة من الشاطئ . وكانت مقاومة الأقاليم المصابة ضعيفة منقطعة أول الأمر ، ففى سنة ٩٣١ توجهت حملة نحو إقليم فرينيه Freinet يؤيدها أسطول بيزنطى لم توفق فى شيء . فى سنة ٩٣٩ توغلت جماعات المسلمين فى جبال الألب حتى وصلت إلى سان جالن St. Gallen (فى سويسرا الحالية) ونهبوا كنيستها . وفى سنة ٩٤٢ توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا ورومانوس ليكابينوس إمبراطور بيزنطة ، وكان

حظها معهم أحسن من حظ الحملة الأولى ، ولكنها لم توفق فى طرد الأندلسيين من فراكسينتوم . ولم يتم إخراجهم من الإقليم إلا على يد أوتو إمبراطور ألمانيا ، فقد سار لحربهم سنة ٩٧٢ وأخرجهم من معتصمهم عند خليج سانت تروبيز ».

هذه هى قصة أولئك المغامرين الأندلسيين ، الذين قاموا بأجرأ محاولة قام بها المسلمون على شواطئ جنوب أوروپا الغربية على طول التاريخ ، وقد أسهبنا فى ذكرها لأنها تدل على قوة أولئك الغزاة البحريين ، ومقدار ما كانوا يستطيعون إنزاله من الأذى ببلاد أوروپا النصرانية . وحوليات التاريخ حافلة بأخبار الكثير من ضربات الأندلسيين والمغاربة على شواطئ أوروپا ، مما يأذن لنا فى القول بأنهم كانوا أنشط المسلمين فى حوض البحر الأبيض ، وأن پيرين محق فيما ذهب إليه من أن هذا النشاط الإسلامى قد قضى على الملاحة تماماً فى مياه أوروپا الجنوبية الغربية . فقد استولى المسلمون كما رأينا على جميع الجزائر الواقعة فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، وكان لهم نصيب فى فتح صقلية ، بل هم الذين فتحوا إقريطش على بعدها عن بلادهم ، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا الشواطئ الإيطالية والغاليّة كما رأينا .

بيد أننا لا يمكننا القطع بأن أولئك الغزاة كانوا أندلسيين فحسب ، إذ لا شك أن أهل المغرب قاموا بنصيب كبير فى هذا النشاط ، فهم الذين فتحوا صقلية ، وهم الذين احتلوا جنوبى إيطاليا وقاموا بحملات كثيرة على بلاد إيطاليا الغربية ، بل وصلوا إلى أحواز روما ونهبوها ذات مرة ، وكانوا أول من غزا سردانية واستقر فيها ، قبل أن يفتحها مجاهد الدانى مع قرصقة ويقيم فيها حكماً إسلامياً نحو ثلاثين سنة ، كما رأينا .

٣

آثار سيادة المسلمين البحرية على أوروپا :

سيطر المسلمون إذن على مياه البحر الأبيض من أواخر القرن السابع الميلادى إلى أواخر القرن العاشر على وجه التقريب ، فماذا كانت نتائج ذلك فى العالم الإسلامى أولا ثم فى العالم الغربى ؟

فأما عن الناحية الأولى فقد أشرنا إلى ما كان من تحول الدولة الإسلامية إلى دولة بحرية متوسطية خلال العصر الأموى ، وإلى مظاهر هذا التأثر فيما يتصل بروح الدولة واتجاهها العام خلال هذا العصر ، وأشرت إلى ما كان من توقف هذا التأثير البحرى بعد انتقال مركز الدولة إلى العراق ، وتحولها إلى دولة أسيوية قارية لا تتأثر بالبحر الأبيض إلا بمقدار قليل جداً ، وبينت ما كان لدخول أمم الشام ومصر والمغرب وشبه جزيرة إيبريا من تحول حاسم فى اتجاه تاريخها وثقافتها .

ا – إقفال موانى غربى أوروپا :

وأما عن الناحية الثانية ، أى آثار دخول المسلمين حوض البحر الأبيض على الجبهة الأوروپية ، فقد لاحظنا كيف أن البحر الأبيض لم يعد فى فترة سيادة المسلمين عليه بحيرة داخلة فى نطاق العالم الرومانى الأوروپى ، بل صار – من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى منتصف الحادى عشر – حداً لهذا العالم ؛ أصبحت الحدود الجنوبية لأوروپا هى سواحلها الجنوبية ، وارتفعت حدود الشرق حتى أصبحت عند جبال البرتات (البرانس) ، ولم تعد جزائر البحر الأبيض الكبرى والصغرى داخلة فى نطاق أوروپا بل فى نطاق آسيا وإفريقية ، بل دخلت فى هذا النطاق الأخير أجزاء كبيرة من كلابريا وأپوليا فى جنوبى إيطاليا ، وأصبحت السواحل الجنوبية للبلقان والسواحل الشرقية لإيطاليا والسواحل الجنوبية لغالة مناطق مهددة بغارات المسلمين ، وتراجع السكان منها إلى الداخل ، أى أن الثغور الأوروپية الواقعة على البحر الأبيض تعطلت طوال هذه الفترة ولم تعد المتاجر تصل إليها ، فأما الحوض الشرقى لهذا البحر فلم تعد تصل إلى الموانى البيزنطية إلا السفن المقبلة من شواطىء أوروپية أخرى ، من ناحية البندقية وإجزركية راڤنا على الخصوص ، وأما الموانى الأوروپية فى الحوض الغربى فقد تعطلت تماماً ، وحرمت أوروپا من واردات الشرق كلها خلال ثلاثة قرون على الأقل . وكان لهذا نتائجه البعيدة على الدولة البيزنطية أولا ، وعلى غربى أوروپا ثانياً .

ب – شواطئ الدولة البيزنطية :

حرمت الدولة البيزنطية من الجزء الأكبر من سواحلها ومرافئها الأسيوية والإفريقية ، واضطرت أساطيلها إلى التراجع إلى مياه بحر إيجه ، وحرمت كذلك من السوريين الذين كانوا يقومون بأكبر نصيب من نشاطها التجارى البحرى ، وبينما كانت أساطيلها قبل الإسلام تقطع الحوض الشرقى للبحر الأبيض وتتنقل فيما بين قرطاجنة والإسكندرية والبرلس وأنطاكية وصيدا وصور والقسطنطينية وسالونيك فى حرية تامة ، أصبح همها المرابطة فى مياه بحر إيجه للحيلولة بين المسلمين وبين اقتحامه ، بل جاء وقت اقتصر همها فيه على حراسة الدردنيل لمنع سفن المسلمين من ولوج بحر مرمرة وتهديد القسطنطينية . وامتنع ورود المحاصيل والمتاجر الشرقية إلى الموانى البيزنطية ، فاضمحلت بحريتها التجارية اضمحلالا يكاد يكون تاماً ابتداء من القرن الثامن الميلادى.

واضطرت الدولة إزاء الخطر الإسلامى إلى تعميم نظام البنود Themata وإدخاله فى ولاياتها البحرية المواجهة للمسلمين[١] . ففى القرن الثامن تحولت ولاية أبيدوس إلى « بند بحرى » عرف بالبند الإيجى ، يحكمه أمير بحر تحت إمرته أسطول يقوم بحماية بحر إيجه ومداخل الدردنيل من سفن المسلمين ، وظهر كذلك بند الكبيريين Kibyrhaetoi وحمل حاكم كل من بالبندين لقب أمير البحر Drungarius ، وكان حاكم البند الأول موكلا بحماية شواطئ آسيا الصغرى ومداخل بحر إيجه من المسلمين[٢] ، وكان أميرا هذين البندين يقيمان فى القسطنطينية ويتبعان الإمبراطور مباشرة ، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير أهم قطعه سفن صغيرة تسمى القرابيز Carabos وهى

(١) راجع عن نشأة نظام البنود Themata فى الدولة البيزنطية فى : A.A. Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1932) vol. 1, pp. 331 sqq
والمراجع المعطاة هناك .

Gelzer : Die Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, S. 82 sqq.

(٢) وانظر : Runciman : Byzantine Civilisation (London, 1948) p. 150.

قريبة الشبه بالشوانى المملوكية[١] ، وبفضل هذه القرابيز السريعة استطاع البيزنطيون منع المسلمين من دخول بحر إيجه ، بل هددوا سواحلهم وموانيهم .

وخلال القرن التاسع أنشئ بند بحرى جديد مركزه جزيرة ساموس ، مهمته مراقبة حركات المسلمين المسيطرين على كريت وحماية مداخل البحر الأدرياتى وجنوب إيطاليا من غاراتهم[٢] ، وقد وصف لنا نظام هذه البنود البحرية البيزنطية الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه المسمى « عن البنود De Tematibus » ، وأكمل هذا الوصف أبو الحسن المسعودى فى كتاب « التنبيه والإشراف » بمعلومات نسبها إلى رجل يسمى مسلم بن أبى مسلم الجرمى كان البيزنطيون قد أسروه وأطلقوا سراحه فى فداء سنة ٨٤٥ م . وقال عنه إنه « كان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكها وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو إليها والغارة عليها من لرجان والأبر والبرغز والصقالبة والخزر وغيرهم »[٣] ، وقد أورد المسعودى عن الجرمى أسماء أربعة عشر بنداً برياً وبحرياً أنشأها البيزنطيون لمواجهة خطر الغارات الإسلامية فى البر والبحر . وإذا جمعنا معلوماته إلى معلومات قسطنطين السابع فى « كتاب البنود » تبينا أن الدولة البيزنطية قد تحولت كلها إلى ولايات عسكرية يحكمها قادة أو أمراء بحار لمواجهة الخطر الإسلامى وأخطار القرصان فى البحر الأدرياتى .

وقد أهمل أباطرة الأسرة الايزورية أمر أسطولهم بعد زوال الخطر الإسلامى على أوائل العصر العباسى ، لأن البحارة كانوا يعارضون سياسة الأباطرة اللاصورية ، وأهملوا تبعاً لذلك بنودهم البحرية ؛ وقد علق الأستاذ رونسيمان على ذلك بقوله : « كانت تلك سياسة خاطئة . فى القرن التاسع الميلادى عادت

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ج ٢ ، عدد ٢ (أكتوبر ١٩٤٩) ص ٨١ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 150.

(٣) المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨٩ ، ج ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

الأساطيل العربية إلى الظهور فى البحر الأبيض ، واقتطعت من الإمبراطورية البيزنطية صقلية وكريت ، وتحولت هذه الأخيرة إلى قاعدة لأعمال القراصنة التى هددت شواطئ بحر إيجه كلها . ومن ثم لم يعد للإمبراطورية مندوحة عن بعث الأسطول من جديد ، ووافق ذلك نهاية حركة اللاصورية ، وكان ذلك أمراً معقولا ، واهتمت تيودورا وميخائيل الثانى وباسيل الأول بإعادة تنظيم البحرية كلها . وأعيدت البنود البحرية إلى ما كانت عليه من تنظيم سابق . وبعد قليل أضيف إليها بند بحرى جديد هو بند ساموس بما فيه أزمير ، وزودت الإمبراطورية بنودها الأوروبية — مثل هيلاس والبيلوبونيز وسيفالونيا — بمنشآت ومعدات بحرية ، وكذلك فعلت فى البنود الإيطالية . وأنشئت عمارة بحرية كبيرة مركزها عند القسطنطينية يقودها « أمير بحر كبير » معتبر من كبار موظفى الدولة .

« وكان حكام البنود البحرية يتقاضون مع ذلك مرتبات تقل عما كان يتقاضاه أمراء البنود الحربية ، فكان راتب الواحد منهم عشر ليرات من الذهب فى العام . وكانت البحرية البيزنطية الجديدة موفقة قادرة على القيام بمهمتها . نعم إنها لم تستطع استعادة صقلية من أيدى المسلمين ، ولكنها استردت جنوبى إيطاليا للإمبراطورية . وتمكنت العمارة البحرية البيزنطية من أن تقوم بحملات فى البحر الأدرياتى بقيادة أمير البحر أوريفاس Ooryphas ، وأعادت أهل الشواطئ الدلماشية إلى الولاء الذى كانت قد تراخت أواصره . وعلى رغم وجود هذا الأسطول تمكن القرصان المسلم ليو الطرابلسى من أن يغزو إقليم سلانيك وينهبه سنة ٩٠٤ ، ولكن الأسطول البيزنطى تعقبه وقتله بعد ذلك بسنوات »[١] .

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن ناحية هامة من نواحى وضع المسلمين فى البحر الأبيض الشرقى ، هى نظرة مؤرخى الدولة البيزنطية ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين إلى أعمال المسلمين البحرية ابتداء من منتصف القرن التاسع الميلادى على أنها أعمال قرصنة . وربما كان ذلك صحيحاً من بعض الوجوه ،

---

(١) S. Runciman : Byzantine Civilisation (London, 1932) p. 150.

لأن الأساطيل الإسلامية النظامية — سواء أكانت تابعة للدولة العباسية فى الشام أم للدويلات المستقلة فى مصر والمغرب — قصرت جهدها على الدفاع عن الشواطئ ، أما الغارات فكانت تقوم بها فى الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص ، هدفها الإغارة على الشواطئ الأوروپية والفوز بالغنائم ، ومن ثم كانت أعمالا قريبة من القرصنة ؛ ومن هنا نفهم السبب فى أن المراجع العربية لا تذكر لنا شيئاً عن هذه الأعمال .

والغالب أن هذه الجماعات التى كانت تقوم بهذه الأعمال كانت جماعات حرة لا سيطرة للدول الإسلامية عليها ، كانت تتخذ موانى المسلمين مراكز لأعمالهم ومنها تشن الغارة على ما استطاعت الإغارة عليه من سواحل البلاد النصرانية فى شرق البحر الأبيض وغربه وخاصة بحار إيچه وآدريا والتيرانى . وكان رجال هذه القوات المنسوبة إلى المسلمين بحارة من كل صنف وجنسية ، وكان فيهم الكثيرون من النصارى ، وهذه العمارات البحرية الصغيرة هى التى روعت أمن شرقى البحر الأبيض ووسطه ، بعد أن كفت الدولة الإسلامية عن محاولة غزو الدولة البيزنطية بحراً بعد نهاية العصر الأموى . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن الشواطئ الأوروپية للحوضين الشرقى والأوسط للبحر الأبيض كانت حافلة بمراكز قراصنة النصارى الذين كانوا لا يفرقون بين بلاد إسلامية وغير إسلامية ، فكانوا يغزون شواطئ الدولة البيزنطية وشواطئ إيطاليا ويروعونها ، وقد نسب مؤرخو النصارى أعمال أولئك القرصان النصارى إلى المسلمين أيضاً ما دامت موجهة ضد بلاد نصرانية[١] .

والذى نخرج به من مجموع ما تحدثنا به المراجع الأوروپية ، هو أن الحوضين الغربى والأوسط للبحر الأبيض كانا تحت رحمة القراصنة من الجانبين ، من منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر تقريباً . وهذا لا يمنع القول بأن ضربات الجماعات الإسلامية أو الخارجة من بلاد إسلامية كانت

---

(١) انظر عن ذلك الموضوع ومراجعه :

Neumann : Die Byzantinische Marine فى المجلة التاريخية الألمانية . H.Z. مجلد ٤٥ ، ص ١ وما يليها .

أعنف ، لأن شواطئ الدولة البيزنطية وممتلكاتها فى دلماشيا وإيطاليا لم تكن محروسة تماما ، أما شواطئ بلاد المسلمين فكانت الحراسة عليها أشد ، ولم تخل مع ذلك من ضربات القراصنة بين الحين والحين .

حـ ـ جماعة أندلسية تستولى على كريت :

وأكبر مثال لهذه الجماعات الإسلامية التى كانت تعمل لحسابها فى مياه البحر الأبيض هو الجماعة الإسلامية التى استولت على إقريطش . وأصل هذه الجماعة من الأندلس ، خرجت من هنالك سنة ١٩٨ــ٨١٣ ــ ٨١٤ عقب هيج ربض قرطبة على الحكم الأول المعروف بالربضى نسبة إلى ذلك الهيج ، إذ أن الحكم أراد عقاب أهل الربض على وثوبهم فنفاهم ، فذهب بعضهم إلى العدوة الإفريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيًّا خاصاً يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحراً ونزلوا إلى جانب الإسكندرية سنة ١٩٩ــ٨١٤ ــ ٨١٥ يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد البلوطى ، لأن ولاة مصر كانوا لا يسمحون للأندلسيين بدخول البلد[١] ، وكان عددهم حوالى ١٥ ألف رجل عدا النساء والأطفال كما يقول دوزى[٢] ، وحدث بعد ذلك ما مكن لهم من الاستيلاء على البلد ، ثم ثار عليهم أهل البلد وطردوهم منها[٣] . فسار أبو حفص بمن معه ونزل ساحل إقريطش « ولم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق بها من الروم أحد وأخرب حصونها وتداولها بنوه بعده » كما يقول النويرى . ثم وفد على الجزيرة بعد ذلك نفر آخر من الأندلسيين وانضموا إلى إخوانهم « وملكوا عليهم رجلا منهم وعمروا فيها أربعين قطعة ، وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ، ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا ، ولم يكن لملك القسطنطينية بهم من قبل » .

و يبدو أن نشاط المسلمين بلغ حداً روع أمن شواطىء الدولة ، فتذكر

---

(١) الكندى : القضاة والولاة ، ص ١٥٧ .

(٢) Dozy : Musulmans d'Espagne (ed. Lévi-Provençal) I. p. 300.

(٣) الكندى : نفس المراجع ، ص ١٥٨ .

المراجع البيزنطية أبا حفص الإقريطشى باسم أبو كاپسو Apocapso وتنسب إليه غزوات كثيرة . وكان مركز أعماله موضع بلد قديم على خليج لادا Lada يسمى شراخ Charax فحصنه وحفر حوله خندقاً ، وعرف كله بالخندق ونشأت فيه مدينة هى التى عرفت فيما بعد باسم كانديا Candia وهى تحريف للفظ « خندق » العربى . وبلغ من خطر أولئك المسلمين الإقريطيشيين على الدولة أن قرر الإمبراطور رومانوس الثانى الاستيلاء على الجزيرة منهم ، فما زال يحتال على ملكهم عبد العزيز بن حبيب بن عمر حتى تم له استعادة الجزيرة فى جمادى الأولى ٣٤٩–٩٦٠ ، وتذهب مراجع أخرى إلى أن الذى استعاد الجزيرة من المسلمين كان نقفور فوكاس . وتذكر المراجع البيزنطية أن عبد العزيز ابن حبيب أخذ أسيراً إلى القسطنطينية وفيها قضى بقية أيامه [١] .

وبعودة إقريطش إلى الدولة البيزنطية عادت سيادة الدولة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ، وحق لنقفور فوكاس أن يقول لليو تويراند السفير الإيطالى : « أنا وحدى أسيطر على البحر »[٢] .

ولكن هذه السيادة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ووسطه لم تدم طويلا ، لأن الأباطرة بعد نقفور فوكاس أهملوا أمر الأسطول ، إما لخوفهم من رجال البحر وقوتهم ، أو لأن شعور الدولة بعدم وجود خطر منافس فى البحر جعلهم يهملون البحرية والأسطول [٣] .

د – البندقية تحل محل بيزنطة

وكانت نتيجة ذلك الإهمال أن فتر النشاط التجارى البيزنطى فى شرقى

(١) انظر عن ذلك كله :

Mariano Gaspar Rimero : Cordobeses Musulmanes en Alejandria y Creta apud Homenaje a Codera (Madrid, 1904) pp. 218 Sqq.

والنصوص العربية التى ذيل بها هذا المقال.

وانظر أيضاً : سيادة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 151.

(٣) Runciman, op. cit. p. 152.

البحر الأبيض المتوسط ، وعندما نهضت البندقية خلال القرن التاسع الميلادى وجدت أمامها مجالا خالياً ، فنشطت أساطيلها فى نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ، وأعانها على ذلك أنها نجحت فى مخالفة المسلمين مخالفة أوامر البابوات ، وأصبحت سفن البندقية واسطة النقل بين المسلمين والبيزنطيين[١] ، فعادت المتاجر الإسلامية إلى الظهور فى الأسواق البيزنطية ، وكانت سفن البندقيين تحمل إلى الثغور الإسلامية الحديد والنحاس والخشب ورقيق الصقالبة ، وتحمل منها القمح والحبوب والنسيج والتوابل والبخور وأصنافاً مختلفة من صناعات الشرق الدقيقة وتنقلها إلى الأسواق البيزنطية والأوروبية عامة[٢]. بل استطاع البندقيون حوالى سنة ٨٢٨ م — بفضل علاقاتهم الطيبة مع المسلمين أن يحملوا من الإسكندرية رفات القديس مرقص منشئ كنيسة الإسكندرية وكاروزها وينقلوه إلى بلدهم البندقية ويجعلوه راعى بلدهم ، وعلى رفاته قامت كنيسة سان ماركو الباقية إلى اليوم بعد تجديدات وتحسينات أدخلت بعد ذلك[٣].

وفى مقابل هذه الخدمات التى قام بها البندقيون للدولة البيزنطية لم يبخل عليهم الأباطرة بالامتيازات والإعفاءات ، فقامت لهم المحطات التجارية والجاليات فى ثغور الدولة والكثير من بلادها الداخلية[٤] ، بل منحهم ألكسيس كومنين عام ١٠٨٢ إعفاء تاماً من الضرائب والمكوس بشتى صنوفها ، فكانت النتيجة أن أصبحت التجارة البحرية فى البيزنطية احتكاراً خالصاً للبندقيين ، وعندما تبدأ الحروب الصليبية سيقوم البندقيون — لا البيزنطيون — بالجانب البحرى من الأعمال الحربية الصليبية[٥] .

---

(١) Mas-Latrie, op. cit. p. 34 Sqq.

(٢) عن نهوض البندقية وسياستها انظر :

Adolf Schaube : Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzuge (Munchen u. Berlin, 1906) s.s. 3 ff.

(٣) شارل ديل : البندقية ، جمهورية أرستقراطية (ترجمة الدكتورين عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١ .

(٤) Henri Pirenne, apud : Histoire du Moyen-Age, tome VIII (Paris, 1933), pp. 22-23.

(٥) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٠) ، ص ٢٨٤ .

ه ــ آثار سيادة الإسلام على غربى البحر الأبيض على غربى أوروپا :

أما فى غربى أوروپا ، فقد كان لدخول المسلمين الحوض الغربى للبحر الأبيض وسيطرتهم على مياهه وتهديدهم شواطئه نتائج بعيدة على مصائر غربى أوروپا من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى نهاية الحادى عشر على وجه التقريب ، وقد درس هذه الناحية المؤرخ البلجيكى هنرى پيرين وخرج من دراساته بنظرية مشهورة عند مؤرخى العصور الوسطى ، جمع أطرافها فى كتابه المعروف « محمد وشارلمان[1] » .

و ــ نظرية هنرى پيرين :

وخلاصة نظرية پيرين أن دخول المسلمين حوض البحر الأبيض أفقد هذا البحر طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة : وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حداً فاصلا بينهما . وإذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية البحر الإيجى من غارات المسلمين إلى حد ما ، فإن أوروپا الغربية وقفت عاجزة أمامهم ، فلم يلبثوا أن سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى جملة ، وضربوا حصاراً حول السواحل الجنوبية لغرب أوروپا ، معتمدين على مراكزهم البحرية القوية التى أنشأوها على شواطئ المغرب والأندلس وفى جزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها . وكانت نتيجة ذلك أن امتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى إيطاليا ، واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين ، كما يقول ابن خلدون فى عبارته التى رويناها قبلا . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة جداً على عهد الكارولنچيين ، فكانت إمبراطوريتهم إمبراطورية برية صرفة ، على حين كان ذلك البحر مفترحاً على عهد الميروفنچيين

(١) أشار إلى نتائج سيادة المسلمين على حوض البحر الأبيض كثير من المؤرخين قبل بيرين ، أهمهم أدولف شاوبه فى كتابه الآلف الذكر ، وهو يعبر عن سيادة المسلمين على هذا البحر وما فعلوه بشواطئه بلفظ ذى دلالة خاصة هو : die Sarazenennot أى الشدة أو المحنة العربية . انظر ص ٣ من ذلك الكتاب . ولكن بيرين هو الذى استخرج من مجموع أحوال البحر الأبيض وأوربا الغربية نظريته المعروفة التى سنعرضها فيما يلى من المتن .

ومن سبقهم من الرومان ، وكان لهذا آثاره البعيدة فى أحوال أوروبا الغربية الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين .

ذلك أن العداء بين الجبهتين النصرانية والإسلامية بلغ ذروته خلال هذه الفترة ، وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيرانى مثل نابلى وأمالفى ، نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غالة وبلاد المسلمين ، بل نجد المسلمين يهاجمون سواحل أوروبا النصرانية فى عنف متصل حتى أوائل القرن الحادى عشر ، فقد نهبوا فيشه Pisa عامى ٩٣٥ و ١٠٠٤ وخربوا برشلونة عام ٩٨٥ ، بل بلغ من اشتداد خطر المسلمين خلال القرن العاشر أن نقلت أسقفية مجلونة Maguelonne إلى مونبلييه[١] . بل هاجمت جماعة من المسلمين روما نفسها عام ٨٤٦ وخربوا بعض كنائسها ، وكانت نتيجة ذلك أن انسحب سكان هذه النواحى إلى داخل البلاد وتركوا السواحل والثغور تحت رحمة المسلمين ، أى أن غربى أوروبا انحصر حصراً شديداً من الجنوب . وإذا كنا نسمع عن ناس حجوا إلى بيت المقدس من غالة وإيطاليا خلال القرنين التاسع والعاشر ، فينبغى أن نذكر أنهم وصلوا إلى الأراضى المقدسة عن طريق البر لا عن طريق البحر . ونتج عن توقف الملاحة توقف التجارة ، لأن التجار الذين عرفهم غربى أوروبا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتماداً تامًّا على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر الأبيض ، وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة إلى أواخر العصر الميروفنجى ، أى إلى نهاية القرن الثامن الميلادى .

---

(١) عرض بيرين نظريته تلك فى أكثر من بحث قبل أن يصوغها صياغة نهائية فى كتاب « محمد وشارلمان » ، وإليك أهم دراساته فى هذا الموضوع :

— Un contraste économique : Merovingiens et Carolingiens dans Revue Belge de philologie et d'histoire. vol. 1, 1922 et vol. II, 1923.

— Medieval Cities (Princeton, 1925).

— Les villes du Moyen-Age. (Bruxelles, 1927).

ز – إغلاق البحر الأبيض الغربى :

وكانت نتيجة ذلك النشاط البحرى الإسلامى تلك الظاهرة التى يصفها پيرين بأنها « انقفال البحر الأبيض الغربى »

la fermeture de la Mediterranée occidentale

وإليك ما يقوله بنصه فى هذا الصدد :

« طالما ظل البحر الأبيض مسيحياً كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب . وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين ، وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين . وإنه لمن الخطأ الجسيم أن نعتقد أن سيادة الإسلام على هذين البلدين قد قضت على كل نشاط اقتصادى لهما . وإذا كانت قد وقعت فى هذه البلاد بعد دخولها فى حوزة الإسلام اضطرابات شديدة[١] ، أو إذا كنا نشهد هجرة واسعة من السوريين نحو الغرب[٢] ، فلا ينبغى أن نحسب أن ذلك دليل على انهيار البناء الاقتصادى هناك . فقد أصبحت دمشق أولى عواصم الخلافة الإسلامية[٣] ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى . وما دام النصارى يؤدون الجزية للدولة الإسلامية فقد كانوا آمنين لا يمسهم ضر ، وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير[٤] .

« ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) يمنع رعاياه من المتاجرة مع بلاد

---

(١) يشير إلى الفتنة التى وقعت بعد مقتل عثمان .

(٢) لا تحدثنا مراجعنا الإسلامية بشىء عن هذه الهجرة ، ولكن بيرين أورد فى موضع آخر من كتابه أدلة استقاها من المراجع الأوربية .

(٣) الصحيح أنها الثانية بعد المدينة ، أو الثالثه إذا اعتبرنا الكوفة عاصمة لعلى بن أبى طالب أثناء خلافته .

(٤) بمناسبة إغلاق الإسلام للبحر الأبيض الغربى (بخلاف حوضه الشرقى) انظر ما يذكره العربى النصرانى يحيى بن سعيد الأنطاكى من أنه لم يجد بين يديه بعد البابا أجاتون (٦٧٨ – ٦٨١) بياناً يستطيع الاعتماد عليه فى ترتيب بطارقة روما . انظر :

Bedier : Charlemagne et la Palestine. Revue Historique, t. CLVII, 1928.

النصارى[١] فى طول فترة الفتوح . وعندما هدأت الحرب واستقر السلام ونشطت الأنفس من عقالها فى الولايات المفتوحة ، عمد الإسلام إلى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحتها أمامه فترحه . لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى عن طريق نهر الڤولجا . وكان على تجار اسكنديناوة الذين كانوا يترددون على نواحى البحر الأسود أن يسرعوا باتخاذ الطريق الجديد ، ويكفى دليلا على ذلك ما عثرنا عليه من قطع العملة الشرقية فى چوتلاند .

« ومن المؤكد أن الاضطراب الذى كان لابد أن يلازم حركة الفتح الإسلامى للشام (٦٣٤ — ٦٣٦) ولمصر (٦٤٠ — ٦٤٢) قد أوقف الملاحة مؤقتاً [١] ، فقد كان لابد من أخذ سفن التجارة وضمها إلى الأسطول الذى أسرع المسلمون لإعداده لاستعماله فى بحر إيچه . ولا يمكن أن نتصور أن التجار كانوا يشقون البحار بسفنهم بين الأساطيل المعادية ، اللهم إلا ما عمد إليه بعضهم انتهازاً للفرصة السانحة من اتخاذ طريق القرصنة .

« ولابد أن نقرر أنه ابتداء من منتصف القرن السابع أصبحت الملاحة — من موانى البلاد الإسلامية وموانى بحر إيچه مع البلاد التى ظلت نصرانية — مستحيلة . وإذا كان قد بقى من هذه التجارة شىء ، فهو نزر يسير لا يستحق الذكر .

« أما من الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها ، فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الأسطول البيزنطى ، واستمر الاتصال مع الأقاليم الإغريقية من بلاد اليونان والبحر الأدرى (الأدرياتى) وإيطاليا الجنوبية وصقلية . ولكننا لا نستطيع القول أنها كانت تستطيع الاستطراد إلى ما يلى ذلك ، لأن المسلمين بدأوا يهاجمون صقلية ابتداء من ٦٥٠ م .

« أما عن النشاط التجارى الإفريقى ، فلا نزاع فى أن القلقلة المستمرة التى

---

(١) عدلت عبارة المؤلف هنا بعض التعديل ، وهاك الأصل :

Il va de soi qu'en pleine guerre, le vainqueur ne laissa pas ses sujets trafiquer avec les vaineus

شملتها من ٦٤٣ إلى ٧٠٨ قد أوقفته تماماً . وإذا كانت قد بقيت منه بقية فقد اختفت بعد سقوط قرطاجنة، وإنشاء تونس ٦٩٨ .

« ثم بدأ فتح الأندلس عام ٧١١ ، وعدمت شواطئ پروڤانس الأمان بعد ذلك مباشرة ، وكانت النتيجة أن أصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية أن تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها ، إذ لم تكن لديها أساطيل ، أو بقى لها منها شىء وجوده كعدمه .

« وهكذا نستطيع أن نقرر أن الملاحة توقفت من حوالى ٦٥٠ مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وأنه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماماً فى شواطئ الغرب[١] جميعها .

« ويبدو توقف هذه الملاحة تماماً بصورة لا تقبل الشك فى أوائل القرن الثامن . لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأبيض إلا على السواحل البيزنطية . وقد صدق ابن خلدون فى قالته : « كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج » (مع استثناء بيزنطة) . لقد أصبح حوض البحر الأبيض تحت رحمة قراصنة المسلمين[٢] . وخلال القرن التاسع نجدهم يستولون على الجزائر ويخربون الموانى ويقومون بغارات (razzias) على كل موضع من مواضعه . وخيم سكون شامل على ميناء مرسيليا الكبير الذى كان فيما مضى المركز الرئيس لتجارة الغرب مع الشرق . لقد انكسرت الوحدة الاقتصادية للبحر الأبيض ، وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية . ولقد ظلت هذه الوحدة قائمة رغم غزوات الجرمان ، ولكنها انهارت

---

(١) يقصد الشواطئ الغربية للبحر الأبيض .

(٢) ناقشت مسألة قراصنة المسلمين هذه فيما سبق .

أمام الدفاع الإسلامى الذى لا يقاوم » .

هذه هى الظاهرة التاريخية الكبرى التى يرى المؤرخ الكبير أنها نتجت عن سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض وتحوله إلى بحيرة إسلامية . وهو يعلق عليها نتائج أبعد مدى مما ذكرنا ، نتائج تتصل بالتطور العام لتاريخ أوروبا الغربية فيما بين منتصف القرن السابع إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين . وأهم هذه النتائج هى سرعة تحول العالم الأوروبى الغربى إلى عالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره إلى نتائج أخرى . ونحن نوجز ذلك كله فيما يلى :

ح – تحول مجتمع غربى أوروبا إلى مجتمع زراعى :

ذلك أن توقف هذه التجارة البحرية أدى إلى اختفاء التجار فى غربى أوروبا . ولما كان هؤلاء التجار هم الذين يعمرون المدن الرومانية القديمة ، فقد أسرعت هذه المدن إلى الاضمحلال والزوال . نعم إن الأساقفة ظلوا يقيمون فيها مع من لزم الكنائس وشؤون الدين من القسس والرهبان والديّارين والطلاب وخدم الكنائس ومن إليهم ، ولكن هذه المدن فقدت أهميتها الاقتصادية ، وإذا فقد البلد أهميته الاقتصادية وخلا من التجار اضمحل وأسرع إليه الزوال . وباختفاء التجارة والتجار اختفى « الصولدى » الرومانى الذهبى الذى كان أساس التعامل التجارى فى حوض البحر الأبيض كله ، واضطر الكارولنچيون إلى سك عملة فضية ، وظهور هذه العملة الأخيرة دليل ناصع على ما أصاب التجارة فى غربى أوروبا من كساد كامل خلال القرن التاسع الميلادى .

ولما كان ابتداء القرن التاسع يوافق الانتقال من العصر الميروڤنچى إلى العصر الكارولنچى فى تاريخ غالة وأوروبا الغربية عامة ، فإن پيرين يعتبر العصر الكارولنجى عصر تأخر اقتصادى حضارى لغربى أوروبا ، ويصف حضارته خلاله بأنها حضارة قارية زراعية ويقول : « وإنه لمن الخطأ البين أن نعتبر حكم شارلمان عصر صعود اقتصادى كما يظن الكثيرون . إن هذا القول ليس إلا وهماً خادعاً ، إذ الواقع أننا إذا قارنا الفترة الكارولنچية بالفترة الميروڤنچية

وجدناها — من الناحية التجارية — فترة تدهور ، أو إذا شئنا فترة تراجع[١] . ولو أن شارلمان حاول أن يوقف النتائج التى لا مفر منها التى نتجت عن اختفاء النشاط الملاحى وانتقال البحر الأبيض لما استطاع »[٢] .

وإذا كنا نلاحظ أن شيئاً من النشاط التجارى قد ظل قائماً فى النواحى الشمالية للإمبراطورية الكارولنچية ، وأن بعض المدن التجارية على الأحواض الدنيا لأنهار الرين والميز والموزيل والإسكو وفى إقليم فريزيا قد استمرت التجارة فيها قائمة ، فلا ينبغى أن نظن أن ذلك كان استمراراً للنشاط التجارى القديم الذى عرفته أوروپا على عهود الرومان والميروڤنچيين ، بل هو فى الغالب نتيجة لاتخاذ شارلمان لبلدة « إيكس لاشاپل » عاصمة له وسط هذا الإقليم ، مما أدى إلى نشاط تجارى قصير الأجل ، إذ لم تلبث غارات النورمانيين أن قضت على ذلك النشاط القليل ، وبهذا أغلقت بحار أوروبا الشمالية كما أغلقت بحارها الجنوبية ، ووقع غربى أوروپا بين حصارين شديدين : من الشمال على أيدى النورمانيين ، ومن الجنوب على أيدى المسلمين

واكتمل هذا الحصار عندما نشطت غارات الآقار والمجر على غربى أوروپا من الشرق ، وقد كانت غاراتهم مخربة قاسية لا تقل عنفاً عن غارات النورمانيين والمسلمين .

وكانت نتيجة هذا الحصار الشديد ، وما تبعه من اختفاء التجارة والتجار واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوروپا إلى مجتمع زراعى صرف ، وأصبح الناس جميعاً يعيشون على نتاج الأرض وحده مباشرة أو غير مباشرة : من الإمبراطور الذى كان يعتمد على ما تخرجه أرضه من محاصيل وما يؤديه إليه أتباعه ومزارعوه من واجبات إقطاعية عينية ، إلى « القن » المتواضع

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى كتاب .

L. Halphen : Etude esitique sur l'histoire de Charlemagne. p. 259 et suiv. (Paris, 1921).

وإلى :

H. Pienne : Le commerce du papyrus dans la Gaule mérovingienne dans comptes rendus des séances de l'acad. des Inscriptions des Belles Lettres, 1928, p. 178 et suiv.

(٢) H. Pirenne : La civilisation occidentale du Moyen-Age, p. 11.

الذى كان يعيش على نصيبه من غلة الأرض التى يزرعها . وأصبح العقار الثابت من أرض أو بيت أساس الثروة . وإزاء ذلك عجزت الدولة عن الحصول على المال اللازم لكراء الجند وتجييش الجيوش ، وأصبح عماد الأباطرة من الناحية العسكرية على الخدمات الحربية التى كانت عقود الإقطاع تلزم الأتباع بأدائها لفترات قصيرة ، واعتمد الإمبراطور فى إنجاز أعمال الدولة على خدمات كبار أتباعه . ولما كانت هذه الخدمات كلها قليلة متقطعة ، فإن الدولة حرمت نتيجة لذلك كله الأداتين الأساسيتين اللتين لا تقوم دولة بدونهما : الموظفين الدائمين والجيش القائم ، والنتيجة الطبيعية لهذا كله هو ضعف الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بمكانها وهيبتها .

وإذا كانت الدولة قد ظلت قائمة من الناحية النظرية ، فقد اختفت فى الواقع ، ولم يكن النظام الإقطاعى فى واقع الأمر إلا تفتيتاً لسلطان الدولة وتوزيعاً له بين المقطعين ، لأن كل مقطع كان يحرص على أن يحل محل الدولة فى أراضيه ، مقابل ما يؤديه للإمبراطور من خدمات والتزامات إقطاعية ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن غلبة نظام الإقطاع على غربى أوروبا خلال القرن التاسع كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الأوروبى إلى مجتمع زراعى خلال هذا القرن .

وقد عرف غربى أوروبا نظام الضياع المستقلة « الدومين » منذ زمن بعيد ، فقد كان فى غالة على أيام أباطرة الرومان وملوك الميروفنجيين ضياع واسعة أو ڤيلات[1] يملكها أشخاص يستخدمون أعداداً كبيرة من الزراع فى زراعتها ،

---

(١) الفيلا Villa تطلق عند الرومان على الضيعة التى يملكها مالك كبير والبيت الذى يقيمه لنفسه فيها ، وقد تطور استعمال اللفظ فأصبح يطلق على القصر الريفى ثم على القصر الخاص الصغير . وقد عرفت العصور الوسطى نوعاً جديداً من الضياع تسمى واحدتها بالفيلا نوفا Villa nova أى الضياع الجديدة ، نشأت عن سماح كبار الملاك لجماعات من المزارعين باستصلاح الأرض البور على أساس حر غير إقطاعى ، وقد كان نشوء الفيلانوفا إلى قيام المدن من مظاهر الانتعاش الاقتصادى فى غربى أوروبا وإرهاصات زوال الإقطاع ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى . انظر :

وقد كان لهذه الفيلات دور هام فى اقتصاديات تلك العصور ، إذ كان أصحابها يبيعون الفائض من محاصيلهم أو يستبدلون به ما كانوا بحاجة إليه من سلع ومصنوعات ، فكانت الضياع مراكز للتبادل التجارى النشيط ، فلما تحول المجتمع كله إلى مجتمع زراعى واختفت التجارة والتجار لم يجد أصحاب الضياع من يحمل محاصيل أراضيهم ويأتيهم عوضاً عنها بما يحتاجون إليه ، واضطروا لهذا إلى الخضوع للنظام السائد ، وأخذوا يستهلكون غلاتهم محلياً ، وأصبح أساس حياتهم الاقتصادية ما يعرف بالاقتصاد الضيعى المقفل économie domaniale fermée ، واهتم كل صاحب ضيعة بأن يضع فى أرضه كل ما كان وأهل ضيعته يحتاجون إليه من أدوات وأن ينسج ما يلزمه ويلزمهم من أقمشة دون زيادة ، لأن الزيادة لم تكن تجد من يشتريها أو يبادل بها شيئاً .

ولم يعرف غربى أوروپا خلال القرن التاسع إلا أفراداً قلائل من اليهود ، كانوا يتسربون إلى غالة عن طريق الأندلس حاملين ما خف وغلا من الحاجيات وطرف المصنوعات الشرقية ، كنسيج الحرير الرقيق الذى كان يصنع فى الأندلس ومصر والشام وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اقتصرت هذه التجارة على اليهود حتى إن لفظ اليهودى judalus والتاجر mercator كانا مترادفين إذ ذاك ، وقد عرفوا فى غربى أوروپا بنفس الاسم الذى عرفهم به المسلمون فى ذلك العصر وهو « الرادانيون » Radanites — نسبة إلى نهر الرون وهو روادنوس باللاتينية ، لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر . وقد كانوا يقدمون للكنائس ما كانت بحاجة إليه من بخور وللناس الفلفل ، وكان من أغلى حاجيات العصر ، حتى إن الناس كانوا يستعملونه أساساً للتبادل كالنقود[1] .

H. Pirenne, op. cit. pp. 62 Sqq.

R. Schroeder : Die Niederlandischen Kolonien im Nord deutschand zur zeit des Mittelalters. Berlin, 1880.

وأنا مدين فيما أخذته من هذا المرجع الأخير لما تفضل الأستاذ آرنالد شتايجر بإرساله إلى من نقول منه .

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 14-15.

ونتيجة هذا كله أن أصبح غربى أوروپا كله مجتمعاً زراعياً خالصاً يتسم بكل الخصائص التى تلازم المجتمعات الزراعية حيثما كانت : فعلاقة الإنسان بالأرض هى التى تحدد وضعه فى المجتمع ، فمن يملك الأرض يتمتع فى نفس الوقت بالحرية والقوة والسيادة ، ومن لم يملك أرضاً لم يعد له نصيب من حرية أو جاه أو سيادة . ولفظ ڤيلان vilain — الذى نستعمله نحن اليوم بمعنى : شرير ، أو قبيح — كان يطلق إذ ذاك على العامل الزراعى فى الضيعة أو الڤيلا ، وهذا أمر له دلالته . وكانت أوضاع الناس فى هذا المجتمع هى التى هى التى تقرر وضعهم القانونى أيضاً ، فكان العاطل من الأرض أيا كان شخصه فى مراتب المستضعفين المستغلين . وكان الناس على هذا طبقات بعضهم فوق بعض بحسب ما يملكون — أو لا يملكون — من أرض .

ى — أثر ذلك التحول فى مركز الكنيسة :

وفى ذلك المجتمع الزراعى الهرمى كان المكان الأول فيه للكنيسة ورجالها ، فقد ملكت الكنائس مساحات شاسعة من الأرض يديرها الأساقفة والقسوس ، وكانوا يحرصون على حسن إدارتها واستغلالها والاستزادة من الأملاك ما تيسر ، وكان رجال الدين يمتازون إلى جانب ذلك بالقراءة والكتابة . ثم إن أصغر بيعة لم تكن تخلو من شيء من آنية الذهب أو الفضة أو طرف من المخمل أو الحرير مما يلزم للطقوس ، وكلها كانت نفائس ذات قيمة يستطيع القس الانتفاع بأثمانها فى أوقات المجاعات والنوازل . وكانت صناديق الكنائس لا تخلو أبداً من العملة التى كان الناس يدخرونها وفاء للنذور أو زكاة عن أنفسهم . وكانت الكنيسة تستعين بهذا المال أيضاً فى تمكين سلطانها وتأييد مركزها . أضف إلى ذلك أن رجل الدين كان يقوم بكل مايحتاجه جيرانه من كتابة وقراءة وتحرير عقود وما أشبه . ومن ثم غلبت روح الدين على كل شيء فى هذا المجتمع الزراعى وجمع رجاله إلى جانب قوة المال قوة المعرفة والعلم ، فضلا عن جاه الدين [1] .

(١) Cf. H. St. L.B. Moss : The Birth of the Middle Ages 396-814. (Oxford, 1935), p. 37.

H. Pirenne : Civilisation. pp. 16-17

وكانت نظرة الكنيسة إلى الحياة تتفق تمام الاتفاق مع روح العصر وأوضاعه ، فقد كانت الكنيسة تقول إن الله قد وهب الناس الأرض ليعيشوا عليها ريثما ينتقلون إلى الدار الباقية ، والإنسان على الأرض لا يعمل ليجمع المال بل ليقيم أود نفسه في الوضع الذى برأه الله عليه حتى تدركه منيته ، وكان زهد الرهبان والديارين — نتيجة لذلك — هو المثل الأعلى الذى كان على كل مسيحى صالح أن يتحراه ، والفقر قضاء من الله ، وعلى من يملك زيادة من الخير أن يتصدق بها على الفقير ، أما بيع هذه الزيادة فلا يتفق مع الفضائل المسيحية كما كانت تبشر بها الكنيسة فى تلك العصور (١) .

ومن هنا كانت الكنيسة وأخلاق العصر تنظر إلى التجارة على أنها عمل لا يليق بالمسيحى المخلص ، وكان التاجر متهماً فى دينه ، وكان رجال الكنيسة يقولون إن التاجر لا يكاد — أو لن — يدرك رضى الله Homo mercator vix aut non quam potest Deo placere mutuum date nihil وكانوا يحضون الناس على البذل والإنفاق ، inde sperantes هذا فضلا عن تحريم الربا ومعاقبة من كان يتعاطاه (٢) .

كانت آراء الكنيسة إذن فى ذلك العصر صورة من روحه تمثله لنا أصدق تمثيل . وذيوع هذه الآراء وأخذ الناس بها فى ذاته هو الصورة العقلية لركود المجتمع الأوروبى فى ذلك العصر نتيجة لاختفاء التجارة ووقوع غربى أوروبا فى ذلك الانحصار البحرى الكامل الذى وصفناه .

ك — النتائج الثقافية :

وتتصل بهذه النتائج الاقتصادية والاجتماعية التى ذكرناها بنتائج ثقافية يراها پيرين ناتجة عن الظروف القاسية التى مر بها العالم اللاتينى الثقافة فيما بين القرنين السابع والعاشر . فقد أمحت آثار اللغة اللاتينية والثقافة الرومانية فى

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 17.

(٢) قارن ذلك بما يقوله ابن خلدون فى مقدمته فى فصول مثل « فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك » و « فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء و بعيدة عن المروءة » .

المغرب كله ، وحلت محلها لغة العرب وثقافة الإسلام ، ودخل هذا الجزء الكبير من أراضى الغرب فى النطاق الثقافى المشرقى ، وامتدت معه حدود الثقافة الأسيوية إلى المحيط الأطلسى . وكانت هذه الحقيقة تثير نفس ا . ف. جوتييه الجغرافى المؤرخ الفرنسى ، ونحن لا نكاد نقرأ له فصلا إلا وجدناه يبدى ويعيد فى هذا الموضوع بين الأسف والتعجب[١] .

أما فى شبه الجزيرة الإيبيرية فقد اختفت اللاتينية أمام العربية من معظم نواحيها ، واختفت حتى من الكنائس ، فلم يعد يعرفها ويقرؤها ويكتبها إلا نفر قليل جداً من كبار رجال الدين ، وانقطعت الأسباب بين غالة وإيطاليا من جهة وإسبانيا من جهة أخرى ، فنسى الناس اللاتينية فى هذا البلد الأخير ، وتكلموا فى أحاديثهم لهجة شديدة البعد عنها هى القشتالية ، وهى أصل الإسبانية ؛ هذا إلى ذيوع اللغة العربية كلغة رسمية علمية فى الأندلس . وقد تكلم الناس هذه اللهجة القشتالية البدائية فيما بقى للنصارى من بلاد شمال إيبريا ، وأخذ مداها يتسع شيئاً فشيئاً ، وامتدت نحو الجنوب تبعاً لتقدم نصارى الشمال وتضاؤل الأندلس الإسلامى ؛ وهى التى أصبحت فيما بعد اللغة الإسبانية .

وأما فى غالة فقد غلبت الأمية على الناس فى ذلك المجتمع الزراعى الذى لا يكاد من يعيش فيه يحتاج إلى قراءة أو كتابة ، بل كانت اللاتينية التى علمها رجال الدين فى مدارسهم لاتينية ركيكة محرفة ، ولكنها كانت لاتينية على أى حال . وقد ظلت هذه اللاتينية تعلم وتفهم حتى نهاية العصر الميرفنجى ، وكان الناس يستطيعون التفاهم بها فى أرجاء العالم الرومانى كله[٢] .

وفى خلال القرن الثامن نجد أن هذه اللاتينية المحرفة تختفى فى غمار الفوضى السياسية مع اختفاء المدن والتجارة ونظم الإدارة ، واختفت كذلك مدارسها ومن كان يعنى بها وبتعليمها من المعنيين بالمعرفة من غير رجال الدين . هجنت هذه اللاتينية وانقطعت الصلة بينها وبين أصلها وحلت محلها لهجات رومانية فى كل

---

(١) انظر كتابه :

E.F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord (Les siècles obscures), 2e. éd. Paris. 1937.

(٢) H Pirenne : Mahomet et Charlemagne. pp. 251-252.

ناحية[١] . ولا نعرف كيف حدث ذلك بالتفصيل ، ولكننا نجد الناس فى غربى أوروبا حوالى سنة ٨٠٠ لا يتكلمون اللاتينية ، ولا ينطقون بها إلا فى الكنائس وبين المشتغلين بالعلم . أصبحت اللاتينية لغة العلم ، وهذه ظاهرة أخرى يقرر الأستاذ پيرين أنها ظهرت خلال العصر الكارولنچى[٢] .

ومن الغريب أن تحول اللغة اللاتينية إلى لغة علم بدأ فى ناحية كان الجرمان قد أزالوا منها كل أثر لاتينى أو رومانى : بدأت فى بريطانيا التى نزلها الأنجلوسكسون .

ذلك أن المسيحية لم تدخل بريطانيا عن طريق غالة ، وكان هو الأمر المنطقى ، وإنما وصلتها عن إيطاليا مباشرة ، لأن البابا جريجورى الكبير أرسل إلى بريطانيا نفراً من الرهبان الأوغسطينيين ليبشروا بالمسيحية فى هذه الجزائر سنة ٥٩٦ . واجتهد الرهبان فى تعليم الناس اللاتينية والمسيحية فى آن واحد ، فارتبطتا فى أذهانهم وأصبحت اللاتينية والمسيحية فى اعتبارهم شيئاً واحداً ، وعن رجال الدين من الأنجلوسكسون انتشرت فى أوروپا فكرة ارتباط المسيحية واللاتينية ، أى أن شمالى أوروبا أصبح مصدراً من مصادر الفكر كما كان مركزاً لسياسة أوروپا فى ذلك الحين ، وذلك — فى رأى پيرين — نتيجة أخرى من نتائج سيادة المسلمين على البحر الأبيض .

وإليك ما يقوله پيرين بنصه ننقله لأهميته الخاصة فى هذه الدراسة :

« ولا بد أن نرجع الفضل فى النهضة الفكرية التى حدثت فى عصر شارلمان إلى المبشرين الأنجلوسكسونيين . وقد سبقهم إلى ذلك الرهبان الأيرلنديون ، وخاصة كولومبان Colomban أعظمهم جميعاً ، وقد نزل فى غالة حوالى ٥٩٠ وهو منشئ ديرى لوكسوى Luxeuil وبوبيو Bobbio . وقد دعا هؤلاء الرهبان إلى التزهد فى عالم كانت عقيدته الدينية فى انهيار . ولكننا لا نستطيع القول بأنه كان لهم أى لون من التأثير الفكرى .

« أما المبشرون الأنجلوسكسون فأمرهم يختلف عن ذلك كثيراً : كان

---

(١) تعبير بيرين هنا طريف ، ونصه :

Elle s'abatardit et se transforme suivant les régions en dialectes romans. op. cit. p. 252.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 252.

هدفهم هو نشر المسيحية فى بلاد الجرمان ، ولم تفعل « الكنيسة » فى هذا السبيل شيئاً ، أو فعلت شيئاً لا يستحق الذكر . وقد وافق مسعاهم هذا ما كانت ترمى إليه السياسة الكارولنچية . وهذا يفسر لنا السر فيما كان يتمتع به رجل مثل القديس بونيفاس من مكانة عظيمة فى هذه الدولة ، فهذا الرجل هو منظم الكنيسة الجرمانية ، ومن هنا كان همزة الوصل بين البابا وپيپين القصير .

« ولقد كان شارلمان مهتماً أشد الاهتمام بالنهضة الأدبية وبإصلاح أمر الكنيسة فى آن واحد . وقد دخل فى خدمته أظهر ممثلى الثقافة الأنجلوسكسونية وهو ألكوين Alcuin فى سنة ٧٨٢ إذ جعله مشرفاً على مدرسة القصر . ومن ذلك التاريخ أصبح له تأثير حاسم فى الحركة الأدبية فى ذلك العصر .

« وهكذا نجد أنفسنا أمام أعجب صورة لانقلاب الأوضاع وهى أنصع دليل على ما أحدثه الإسلام من شادخ فى الاتجاه العام لتاريخ أوروپا فى العصور الوسطى ، فقد أخذ الشمال مكان الجنوب كمركز أدبى وسياسى معاً »[(١)]

ثم يقول إن أولئك المبشرين الأنجلوسكسون حملوا إلى بلاد الشمال اللغة اللاتينية الأصيلة ، لا تلك اللاتينية الركيكة المليئة بالأخطاء التى استعملها الناس فى غالة وإيطاليا فى ذلك الحين لتيسير شؤونهم المعاشية والإدارية ، ويصف كيف كانوا يحرصون على دراسة اللاتينية الصحيحة فى الأديرة دراسة ثابتة عميقة قبل صدورهم إلى نواحى الشمال التى كانوا يبشرون فيها بالمسيحية ، ويقول بعد ذلك :

« وإذن فقد حمل أولئك المبشرون إلى من أدخلوهم فى المسيحية التقليد اللاتينى الأصيل القديم واللغة الصحيحة التى لم تتحرف وتفسد بسبب استعمال الجمهور إياها فى شؤونه الدارجة ومصالحه ، لأن الجمهور هناك كان يتكلم الأنجلوسكسونية . وإذن فقد تلقت الأديرة الإنجليزية تراث الثقافة القديم تلقياً مباشراً ، بالضبط كما سيحدث فى القرن الخامس عشر ، عندما يحمل علماء بيزنطة المهاجرون إلى إيطاليا اللغة الإغريقية الأصيلة التى كان الناس

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 253-254.

يتدارسونها فى المدارس ، لا إغريقية العوام فى الطرقات . ومن هنا أصبح الأنجلوسكسونيون مصلحى اللغة والكنيسة فى آن واحد »[١] .

ل — محمد وشرلمان :

وهذا الذى يقوله پيرين ينطوى على معان بالغة الأهمية تغلب كل ما كان الناس يقولونه عن ثقافة الإمبراطورية الكارولنچية رأساً على عقب ، فقد كان المؤرخون يرون أن نهضة الثقافة فى العصر الكارولنچى أو ما يسمونه بالنهضة الكارولنچية La Renaissance Carolingienne كان ثمرة لجهود أهل العلم من اللاتين ممن خدموا الدولة . وكان علماء الألمان خاصة يرون أن الفضل فيها يرجع إلى أهل العلم من الجرمان من أهل شمالى الدولة الكارولنچية ، فأثبت خطأ ذلك ، وأن العلم واللغة اللاتينية كانا فى حال سيئة فى جنوبى غالة ووسطها وإيطاليا فى ذلك الوقت ، وأن الذى قام بعبء هذه النهضة كانوا من الأنجلوسكسون الذين أخذوا المسيحية واللاتينية من أصولهما عن طريق الدرس الدءوب فى الأديرة .

وإلى جانب ذلك نلاحظ انتقال العلم إلى بلاد الشمال ، نتيجة لما أصاب النواحى الجنوبية من غربى أوروپا من ركود وما تهددها من أخطار . وبينما كان العلم يضمحل بين سكان البلاد الرومانية الأصيلة فى إيطاليا وغالة كانت أقدامه تثبت فى نواحى الشمال حيث حمله إليها رهبان من الأيرلنديين أو الأنجلوسكسون. وعندما يتأمل الإنسان أسماء من اشتهر بالعلم خلال هذا العصر يلاحظ أن غالبيتهم من أصول أيرلندية أو أنجلوسكسونية أو أوربية شمالى السين مثل ألكوين ونازون وإيثلولف و Sedulius Scotus و Walahfrid, و Raban Maur, و Eginard, و Angilbert, و Gotteschalc, وغيرهم كثيرون ممن نقرأ كتاباتهم إلى جانب ما خلفه ذوو الأصول الرومانية من كتاب ذلك العصر من أمثال Théodulphe d'Orléans, Diacre و Paul Paulin d'Aquilée, ومن إليهم .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 254.

وخلاصة كلام پيرين عن الناحية الثقافية من نتائج سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض ، أن مراكز العلم والثقافة انتقلت شيئاً فشيئاً إلى الشمال حتى صار لها فيه من المراكز ما فاق مراكزها فى مواطنها الأولى فى إيطاليا وغالة ، أى أن الثقافة اللاتينية التى كانت قبل ذلك رومانية أصبحت جرمانية رومانية ، واقتصر أمرها فى كلتا الناحيتين على الكنيسة .

أصبح شمالى أوروپا إذن مركزاً من مراكز الحضارة اللاتينية الرومانية بسبب ما أصاب جنوب جزئها الغربى من ركود واضمحلال نتيجة لسيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، وهذه الثقافة الرومانية التى انتقلت إلى الشمال وأخذت طابعاً جرمانياً فى نواحى الرين الأدنى هى التى اعتمد عليها شارلمان فى إقامة دولته : من أهلها كان رجاله وموظفوه ، بل كان من أظهر ما ميز شارلمان وجعل له مكاناً فى التاريخ هو تفكيره الجرمانى الرومانى واتجاهه إلى إحياء الدولة الرومانية وميله إلى الكنيسة وإخلاصه للمسيحية ، كل ذلك كان نتيجة لانتقال هذه الثقافة الرومانية إلى الجرمان وتأصلها بينهم ، ولولا أن الفرنجة الساليين اكتسبوا هذا الطابع الثقافى الرومانى ما بلغت دولتهم هذا المبلغ ، ولما كان شارلمان ما كان ، ومن ثم ينتهى پيرين إلى قالته المشهورة : إن شارلمان لا يفهم بدون محمد وهى قالة فيها كثير من العمق ، ولكنها تبعث كثيراً من الاعتراضات والاستدراكات ، وكان من الطبيعى لهذا أن تثير بين علماء العصور الوسطى ما لم تثره نظرية أخرى قال بها عالم آخر .

وقد جاءت الاعتراضات على آراء پيرين من ناحية مؤرخى الألمان ، لأن پيرين عندما تتبع نتائج سيطرة المسلمين على البحر الأبيض جعل من بينها تحول مجتمع غربى أوروپا إلى مجتمع زراعى ثم انتقال الحضارة اللاتينية إلى شمال غربى أوروپا وقال إن هذا الانتقال هو الذى جعل لعصر شارلمان حضارة وقوة ، وجعل لدولته هذا المكان فى تاريخ أوروپا ، أى أن السر فى عظمة الدولة

---

(١) انظر : فازيلييف : الإسلام وبيزنطة . ذيل على الترجمة العربية لتاريخ الدولة البيزنطية لفورمان بيتز ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

Charlemagne sans Mahomet est inconcevable.

الشرلمانية إنما هو انتقال الحضارة اللاتينية إلى الشمال حيث كان مركز الدولة ، ولولا هذا الانتقال لما كان للعصر الشرلمانى هذا المقام . أى أن العناصر الجرمانية فى الدولة الشرلمانية لم يكن لها حضارة من عندها ولم تساهم فى إقامة الدولة إلا بالجانب العسكرى .

وعلماء الجرمان لا يقولون بذلك ، بل إنهم يقولون إن أسس الدولة الشرلمانية كلها – أو معظمها على الأقل – كانت جرمانية ، وإن أصول نظمها إنما تلتمس فى نظم الجرمان الأولى . ويخالفهم فى ذلك المؤرخون الذين ينتسبون إلى أصل لاتينى ، كالفرنسيين مثلا . وهذا الخلاف على أسس الدولة الشرلمانية إن هو إلا مظهر من مظاهر النزاع حول أصول الحضارة الوسيطة بين المدرسة الجرمانية والمدرسة الرومانية .

م – اعتراضات على نظرية پيرين :

وكان من الطبيعى أن يعترض مؤرخو الألمان على آراء پيرين اعتراضات شتى . وهذه الاعتراضات أخذت صورتين : الأولى الإقلال من شأن سيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، ودحض ما سماه پيرين انقفال البحر الأبيض ، والثانية بيان الأصول الجرمانية فى الحضارة الشرلمانية وإعطاؤها جانباً أكبر من الأهمية. وقد كتب الرد على پيرين كثيرون منهم ألفونس دوبشAlfons Dopsch ورودلف إيجر Rudolf Egger ، وأوزوالد منجين Oswald Menghin ، ورودلف موش Rudolf Musch ، وكارل پاتش Karl Patsch وهانز أوبربرجر Hans Uberberger ، وإيرما باتسلت Erma Patzelt وغيرهم كثيرون . وقد أحسنوا الدفاع عن وجهة نظرهم من ناحية إثبات نصيب الجرمان فى الحضارة الكارولنچية . وبقى أن نبحث نحن – أى مؤرخى الإسلام – جانبنا من هذه القضية الهامة . وقد لمست الآنسة إيرما باتسلت النقص فى الجانب الإسلامى من هذه الدراسة ، وأهابت بدارسى تاريخ الإسلام وحضارته أن يدرسوا الموضوع من جانبهم ، ويبينوا ما كان للإسلام من نصيب فى تاريخ البحر الأبيض ، وما كان لقيام دولهم على شواطئه من

أثر على تطور الحضارة الأوروبية [١].

٤

الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض أثناء عصور سيادة الإسلام عليه :

بقى أن نناقش نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع كله ، هى نقطة الوضع السياسى العام فى البحر الأبيض فيما بين منتصف القرن الثامن إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين .

وأمامنا فى هذه الناحية رأى يتناقله المحدثون من مؤرخى الإسلام كأنه حقيقة مقررة لاشك فى صحتها تاريخياً : هى أنه قامت على شواطئ هذا البحر خلال هذه الفترة أربع دول كبرى ، اثنتان إسلاميتان : هما العباسية فى المغرب والأموية فى الأندلس ، واثنتان نصرانيتان : هما البيزنطية فى الشرق والفرنجية فى الغرب ، وأن الدولتان الإسلاميتين كانتا على عداء فيما بينهما ، وكذلك الدولتان النصرانيتين . ولهذا اجتهدت الدولة العباسية فى محالفة الدولة الكارولنچية للاستعانة بها على الدولة الأموية الأندلسية ، وفى نفس الوقت اجتهدت الدولتان البيزنطية والأموية فى التحالف معاً للقضاء على خصمتيهما .

ويذهب أولئك المؤرخون إلى أن الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والمحالفات ، وكذلك فعل أمراء بيزنطة وخلفاء الدولة الأموية والأندلسية .

ولكننا عندما نمضى فى دراسة العلاقات بين هذه الدول الأربع ، نتبين أن الأمر مجرد وهم تاريخى تناقله الناس واحداً عن واحد دون تحقيق أو تفكير سليم .

ا ــ العباسيون والكارولنچيون :

وقد ناقش الناحية الأولى علاقة الدولة العباسية بالدولة الكارولنچية مؤرخون كثيرون فيما بين مؤيد ومعارض ، من أمثال بكلر وچورانسن ورنسيمان وف.ف.

---

(١) Erma Patzelt : Die frankische Kultur und der Islam, (1932), S. 2.

شميت وغيرهم ، وقد ناقش هذه الآراء كلها الدكتور عبد العزيز الدُّورى مناقشة طيبة فى كتابه « العصر العباسى الأول » ، وانتهى إلى نتائج يمكننا الأخذ بها ، وسنعرض هنا مناقشته فى إيجاز :

قال : « تخلو المصادر الشرقية — إسلامية ومسيحية — من الإشارة إلى أى صلة بين الرشيد وشارلمان ، وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك ، ولكنها مضطربة وغامضة ، فلا غرابة أن وجدنا تبلبل الكتاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات . ولكنهم جميعاً — عدا بارتولد — يقررون صحتها ثم يختلفون فى تفسير نتائجها » .

وهذه المصادر اللاتينية التى يشير إليها الدكتور الدورى هى :

Eginhard : Vita Caroli.
St. Call : Gesta Caroli Magni.
Gesta Regum Francorum. (١)

وهذه المصادر تؤكد أن هارون الرشيد وشارلمان تبادلا السفارات والهدايا فيما بين سنتى ٧٩٧ و ٨٠١ ، و « بينما كانت السفارة التى أرسلها شارلمان إلى الرشيد فى الشرق ، حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان ، وكان البادئ بها هو البطريق ، إذ أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية . ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأرض المقدسة . وفى كانون الأول سنة ٨٠٠ رجع زكريا إلى الغرب يصحبه راهبان من قبل بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح كنيسة القدس وراية » . ثم يقول :

---

(١) هذه هى الإشارات الكاملة إلى المراجع التى يشير إليها المؤلف :

Eginhard : Vie de Charlemagne, publ. avec trad. française par L. Halphen, 2e. éd. Paris, 1938.

Moine de Saint-Gall : Gesta Caroli Magni, pub. dans les Mon. Germ. Série des Seriptores. Tome II, Hanovre, 1829.

Gesta Regum Francorum, publ. par B. Krusch sous le titre : Liber Historiae Francorum dans les Mon. Germ. Série des Seriptores rerum Merovingicarum. Tome II, Hanovre, 1888.

« أما العوامل التى دعت إلى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهى متعددة ، منها رغبة شارلمان فى فتح الأندلس وحاجته إلى تأييد الخليفة المعنوى لئلا يقف عرب الأندلس فى وجهه كعدو للإسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨ حين هاجم شمال الأندلس وفشل . ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية ، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحى ، ورغبة البابا (حليف شارلمان) فى تقوية صلاته مع بطارقة الإسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه . ثم رغبة شارلمان فى تسهيل الحج إلى الأراضى المقدسة وفى تكوين نفوذ معنوى له فى تلك البقاع .

« أما مصالح الرشيد فهى ناتجة فى زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته فى القضاء على نفوذهم المعنوى بين مسيحيي الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب ، ثم عدائه لأموى الأندلس ورغبته فى بسط سيادته عليهم[١] .

« وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود — وهى تأويلات بنوها على التخمين غالباً — نذكر بعض الشكوك التى تساورنا فى التفاصيل المذكورة والتى تجعلنا نميل لنفى وجود صلات سياسية .

« فقبل كل شىء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب ، فالمصدر الأول المعاصر — وهو الأخبار — الملكية « Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات ، بينما قصد اينهارد فى كتابه « سيرة شارلمان » تفخيم سيده ورفع اسمه ، وفى الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه . أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتاب الأساطير[٢] . وقد

---

(١) انظر Buckler : Harun al-Rashid and Charles the Great (Massachusetts, 1931), p. 170 off.
Joranson : The Alleged Frankish Protectorate in Palestine A.H.R. 1927, pp. 241-6.
S. Runciman : Charlemagne and Palestine E.H.R. Op. cit. 1935, pp. 606 off.
F.F. Schmidt : Karl der Grosse und Harun al-Rashid.
Der Islam, vol. III, 1912, pp. 409-11.

(٢) انظر : Joranson, op. cit. p. 251, Runciman, op. cit. p. 619

اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفى وجود الصلات [١]

« ثم يظهر لى أن الباحثين ظروف شارلمان ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل . فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم إلى دفع الجزية سنة ٧٩٨ ، كما أنه لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة فى عهده . ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين ؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته فى ذلك الغريب لاسترجاع الأندلس ؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحى لضرب مسلمى الأندلس ؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد فى استرجاع الأندلس فى وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية فى إفريقية (تونس) والمغرب ؟ كل هذه نقاط تنفى بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان . ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة فى هذا الدور . ففى سنة ٧٩٨ أرسلت إيرينى وفداً إلى شارلمان للمفاوضة فى عقد حلف[٢] واقترحت عليه الزواج ، ولعلها سلمت بإعطائه لقب إمبراطور [٣]. ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسى وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه ؟ لا أرى ذلك .

« وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق ، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة) . . . ويرى أن إسحاق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب ، لا سفيراً[٤] . ويقوى رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل [٥].

---

(١) انظر : Buckler, op. cit. p. 34-7

(٢) Ibid. p. 18.

(٣) Ibid. p. 20-21.

(٤) Ibid. p. 45.

(٥) Joranson, op. cit. p. 243.

« أما فيما يخص نتائج الصلات ، فيرى فاسيلييف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين ، « صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (فى الأراضى المقدسة) وحق إنشاء كنائس وخانات فى فلسطين »[١] .

« أما بريبه Brehier فيستنتج من قول اينهارد أن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضى المقدسة كما أن إرسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامى الجديد .

« وقد بين الأستاذ چورانسن أن آراء بريبه مبينة على التخمين لا على تدقيق علمى ، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول ، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل ، فحصل عليه . وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم ، كما أننا لا ندرى ما إذا كانت قد حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى إنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه[٢] . أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق فلا يمكن أن يعطى معنى سياسياً لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك benedictionis causa ، وإذن « فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس فيها » . ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان . ثم يستطرد چورانسن ويقول إن « الأخبار الملكية » لا تذكر مهمة الوفد الإفرنجى الثانى ، وأن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطاليب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضى المقدسة . ولكن اينهارد (فى رأى چونسن) لا يمكن الوثوق به كما أنه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩) ، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ،

---

(١) Ibid. p. 241.

(٢) Joranson, p. 242.-5

بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له [١] .

« تبقى نقطة أخيرة وهى أن شارلمان أرسل صدقات وهبات إلى فلسطين فاستعملت فى تعمير بعض الكنائس ، وأنشأ منزلا للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة . ولكن ذلك لا يكفى ، كما يرى چورانسن ، للبرهنة على وجود حماية ، خاصة وأن ايتهارد يذكر أن شارلمان « خطب ود الملوك وراء البحار لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون فى ممالكهم » وهذا لا يقتصر على الرشيد[٢] . وهكذا يدحض چورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضى المقدسة .

« أما بكلر ، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم ، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة ، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحى بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث : (١) تحديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية فى الأندلس وفى غربى البحر المتوسط ، (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمى إلى التعاون المتبادل ، فيقف شارلمان ضد الأندلس ، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين ، أو السماح لإيرينى بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسى أن الصلح عقد سنة ٧٩٨) ، (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيارة الأراضى المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٣] . وهكذا يبنى بكلر نظريته على الحدس ، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ولكنه يقول إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ولذلك توسط شارلمان فى الموضوع [٤] . ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسى مستدلا على ذلك بإرسال بطريق القدس مفاتيح المدينة والراية[٥] . وهذا المنصب لا يتطلب (فى زعمه) حضور

---

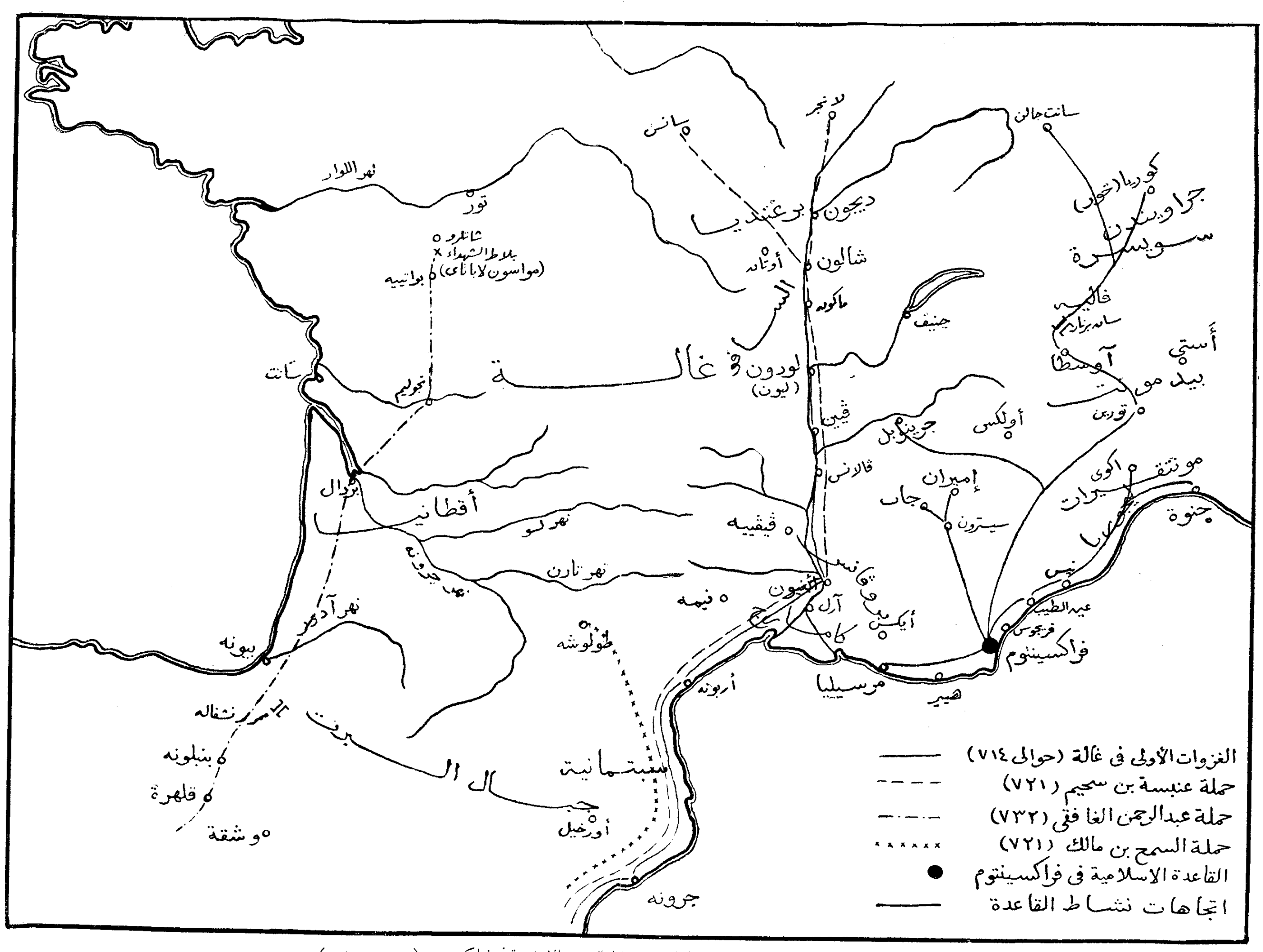
(١) Joranson, op. cit. pp. 248-52.

(٢) Ibid. p. 255.

(٣) Buckler, p. 22.

(٤) Ibid. pp. 26-9.

(٥) Ibid. p. 30.



خريطة تبين غزوات المسلمين فيما وراء جبال البرت ونشاط القاعدة الإسلامية فى فراكسينتوم (٨٩١ – ٩٧٥)

شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[١]. وكذلك عين شارلمان « أمير استيلاء » على الأندلس[٢] .

ويقول بكلر أن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الإسلامية ، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي ، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله فى تنفيذ مهامه ! ثم هو يجعل شارلمان « أمير استيلاء » على الأندلس مستنداً بذلك إلى تفسير الماوردى لإمارة الاستيلاء . ولكن الماوردى يبين أن إمارة الاستيلاء « تعقد عن اضطراب ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين »[٣]. فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين ؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزرى ؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس ، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره ؟ وأخيراً نقول إن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها وذلك لضرورات عسكرية . وهكذا نرى بكلر بتخبط فى موضوع لا يفهم كنهه ، ويفرض فروضاً لا أساس لها فى الفقه أو التاريخ الإسلامى .

أما « رنسيمان » فيرى فى نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة ، اخترعها المؤرخ الأسطورى الراهب سنت كول الذى كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان إذ جمع المعلومات عن الهدايا التى أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[٤] .

وهكذا يظهروهن نظرية الحماية وأساسها الأسطورى . والذى أراه من

---

(١) Ibid. p. 29 No. 1.

(٢) Ibid. p. 35.

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ص ٢٧ .

(٤) Runciman, op. cit. p. 629.

هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر فى المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لا سياسية ، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة[١] ، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم » .

وهذه المناقشة السليمة تجلو هذه الناحية جلاء تامًّا ، وتظهر بوضوح أنها من ابتكار مؤرخى شارلمان ليزيدوا من فضله وجاهه ، وأن الذين أيدوها من المؤرخين الأوروبيين المحدثين إنما فعلوا ذلك بدوافع بعضها دينى كالرغبة فى إثبات أن المسلمين فى أيام عزهم سمحوا للنصارى بحماية الأراضى المقدسة ، بل تركوا مفاتيح كنيسة القيامة فى يد شارلمان ، وبعضها سياسى يرمى إلى القول بأن للغرب على الأراضى المقدسة حقوقاً اعترفت بها الدولة الإسلامية فى أوجها .

ب — الأمويون الأندلسيون والبيزنطيون :

أما الجانب الثانى من هذا الموضوع جانب علاقات الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية ، فهو أوضح بعض الشىء ولدينا عنه معلومات يمكن الوثوق فيها ، بل لدينا نصوص مكاتبات احتفظت بها المراجع ، ونحن لهذا نستطيع تكوين صورة واضحة عنه وقد تناوله بالبحث علماء من طراز راينهارت دوزى وجورج مارسيه وليڤى بروڤنسال وڤازيلييڤ .

والمعلومات التى بين أيدينا عن هذه العلاقات متفرقة فى كثير من مراجع التاريخ الأندلسى ، مثل مقتبس ابن حيان والبيان المغرب لابن عذارى ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون . والمعلومات التى يقدمها لنا ابن حيان فى المقتبس ترجع بدورها إلى اثنين من أوثق وأقدم مؤرخى الأندلس عاشا فى القرن العاشر الميلادى هما الحسن بن محمد بن مفرج وعيسى بن أحمد الرازى .

وتتلخص هذه المعلومات فى أن إمبراطور بيزنطة تيوفيل الرابع أرسل فى سنة

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعتناء دى خويه ، ليدن) ، ص ١٥٤ .

٢٢٥–٨٣٩ / ٨٤٠ إلى عبد الرحمن الأوسط « ترجماناً » رومياً (أى سفيراً) يسمى كرتيوس Kratiyus ، حاملا هدايا ورسالة يخطب فيها وده ويسأله أن يعقد معه معاهدة صداقة ، ويحرضه على استرجاع ملك أجداده فى الشام الذى غصبه العباسيون ، ويطلب استخلاص إقريطش ممن استولى عليها من الأندلسيين وردها إلى دولة الروم .

والغالب أن دافع الإمبراطور البيزنطى إلى هذا المسعى كان خوفه من نوايا المعتصم الخليفة العباسى ، وكان المعتصم قد غضب من عدوان الروم على زبطرة سنة ٨٣٧ ، فقام فى صيف العام التالى بغزوة كبيرة على أرض الروم استولى فيها على عمورية مهد البيت البيزنطى الحاكم . وقد اكتفى المعتصم بذلك ولم يواصل نشاطه ، ولكن يبدو أن تيوفيل ظل متخوفاً منه ، فكان هذا — على الأغلب — ما دفعه إلى مكاتبة عبد الرحمن الأوسط ، لعله يثير على العباسيين مشكلة تصرفهم عنه . ومما يؤيد ذلك أن تيودفيل أرسل فى نفس الوقت سفارتين إحداهما إلى لويس التقى والأخرى إلى البنادقية ، يستصرخهما لعونه على العباسيين الذين كانوا يهددون دولته فى الشرق ، وعلى أهل إفريقية وصقلية الذين استولوا على جزء كبير من أملاك الدولة فى الغرب . وقد رد عبد الرحمن على ذلك بسفارة إلى الإمبراطور البيزنطى تتكون من اثنين من المنجمين والشاعر المعروف يحيى بن حكم الغزال ، ومعهم رسالة احتفظ لنا ابن حيان بنصها . وقارئ هذه الرسالة يتبين بوضوح أن عبد الرحمن كان شديد الحذر فى كتابه إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ نعم إننا نجد هذا الرد دلائل على كراهيته للعباسيين وألمه لفضائهم على البيت المروانى وقتلهم جده مروان بن محمد ، ولكنه لم يرتبط من ناحيته بشىء ، حتى عن الأندلسيين الذين كانوا قد استولوا على صقلية يقرر عبد الرحمن أنهم منذ طُردوا من الأندلس لم يعودوا رعاياه . ولا يشير الكتاب إلى ما ذكره الإمبراطور البيزنطى من أعمال الأغالبة فى صقلية وجنوبى إيطاليا .

وقد تجددت المحاولة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وكان البادئ بها هذه المرة هو الإمبراطور البيزنطى قسطنطين پورفيرو چنيت Porphyrogenete (لابس الأرجوان) ، فقد أرسل فى سنة ٣٣٦, ٤٤٧ — ٨ سفارة إلى الناصر .

ولم تحتفظ لنا المراجع بنص رسالته إلى كبير خلفاء الإسلام فى عصره ، ولكن الغالب أن الذى دفع الإمبراطور البيزنطى إلى مكاتبة الناصر كان شعوره بما كان بين الأمويين والفاطميين من عداء وتخوفه من نوايا أولئك الأخيرين نحوه بعد انتقالهم إلى مصر . وقد تلقى الناصر السفارة البيزنطية لقاء حسناً حرص فيه على أن يظهر دولته بمظهر القوة والجاه ، وقد وصف لنا المقرى مشهد استقبال سفراء الروم وصفاً بديعاً ، وأورد نص الخطبة التى ألقاها منذر بن سعيد البلوطى كبير علماء الأندلس فى عصره فى هذه المناسبة ، وهى قطعة من البلاغة الجوفاء لا تغنى بشىء فى هذا المقام . وقد رد الناصر على سفارة الإمبراطور البيزنطى بكتاب سلمه إلى رسله مع طائفة من الهدايا والألطاف ، وبعث معهم رجلا من عنده هو هشام بن هذيل — أو كليب — كان من قسوس مستعربى الأندلس ، ولهذا تسميه المراجع العربية بالجاثليق Catholicus ، وقد عاد هشام إلى الأندلس بعد سنتين .

ويحدثنا المقرى فى نفح الطيب أن عبد الرحمن الناصر عندما شرع فى بناء مدينة الزهراء بعث إلى القسطنطينية فى طلب الفسيفساء والمرمر ، وقد قام بالسفارة هذه المرة كبير مستعربى الأندلس الأسقف ربيع بن زيد ، فأدى الرسالة وعاد بالتحف المطلوبة . ويفهم من رواية المقرى أنه مر ببيت المقدس واستصحب فى عودته نفراً من صناع الفسيفساء ليعلموا أهل الأندلس صنعها وتركيبها . ويقول المقرى فى كلامه عن الزهراء : « وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه إليها أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء (بيت المقدس) ، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام — وقيل من القسطنطينية — مع ربيع الأسقف » . ويبدو أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التى أرسلت بيزنطة فيها إلى الأندلس طُرف الفن ومهرة الصناع ، فقد ورد عليها أيام الحكَم المستنصر نفر آخر منهم ، ومن هؤلاء الصناع البيزنطيين تعلم أهل الأندلس هذه الفنون الجميلة ، وكان لهذا أبعد الأثر فى تطور الفن الأندلسى وقد علق مؤرخو الفن الإسلامى — مثل هنرى تيراس — أهمية كبرى على ذلك .



خريطة البحر الأبيض وعليها جميع المواقع الوارد ذكرها فى البحث (لم تبين خطوط سير الحملات)

ويحدثنا ابن أبى أصيبعة فى « طبقات الأطباء » أن الناصر كاتب أرمانيوس الملك ، ملك قسطنطينية Romanus Lécapenus — أحسب سنة سبع وثلاثين وثلثمائة — وهاداه بهدايا لها قدر عظيم ، فكان فى جملة هديته كتاب ديسقوريديس Dioscorides مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، وبعث معه كتاب هروسيس Paulus Orosius صاحب القصص وهو تاريخ للروم عجيب ... » . وقد وصلت هذه الهدية الجليلة مع سفارة استقبلها الناصر ورجال دولته استقبالا حافلا . ويذهب ليڤى پروڤنسال إلى أن هذه السفارة قد تكون هى نفسها التى وقعت سنة ٣٣٨—٩٤٩ ، ويعجب من أن وصف احتفال الناصر بها كما أورده ابن حيان ينطبق تمام الانطباق على ما أورده قسطنطين السابع لابس الأرجوان عنها فى كتاب « الاحتفالات » .

ونخرج من هذا الكلام بأنه كانت بين الدولتين البيزنطية والأموية الأندلسية مراسلات وسفارات ، وأن أباطرة البيزنطيين حسبوا أول الأمر أنهم يستطيعون الإفادة من العداء الطبيعى بين الأمويين الأندلسيين والعباسيين فى كسب الأولين إلى جانبهم والاستعانة بهم على العباسيين . وقد رأينا أن الدافع الأول للبيزنطيين على مكاتبة الأمويين أن الذين انتزعوا منهم إقريطش كانوا أندلسيين ، فحسب البيزنطيون أن أمير قرطبة يستطيع رد أذى الأندلسيين عن شواطئ الروم وتوسلوا إلى ذلك بتذكير الأمويين بمساءات العباسيين إليهم ولوحوا لهم بإمكان فتحهم للشام . ولكن أمراء الأندلس كانوا أعقل من أن يجروا وراء هذه الأوهام وأكيس من أن يجأروا الإمبراطور البيزنطى فيما جمع به خياله إليه ، وتمكنوا — بما عهد فيهم من كياسة — من توجيه العلاقات بينهم وبين بيزنطة وجهة سلمية علمية أفاد الأندلس منها فائدة جليلة .

لم يكن هناك إذن اتفاق بين البيزنطيين والأمويين على عداء العباسيين ، ولا تفاهم بين العباسيين مع الفرنجة على الإضرار بالأندلس ، والموضوع كله وهم تاريخى أشبه بالأسطورة أخذت هيأة الحقيقة التاريخية لكثرة تكرارها وإلحاح المؤرخين على ذكرها .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن نشير إلى نتائج قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية على سيطرة المسلمين على هذا البحر . فقد وقع النفور الشديد من أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين ، وأخذ كل منهما حذره من الآخر ، وكما كانت الدولتان على عداء فى البر كانتا فى البحر أيضاً كذلك ، فأخذت سفن كل منها تتعقب سفن الأخرى وتؤذيها ، فكانت النتيجة أن ضعفت الجبهة البحرية الإسلامية فى غرب البحر الأبيض ، وبدلا من أن توجه أساطيل المسلمين قوتها نحو الجبهة النصرانية المعادية ، اجتهد كل منهما فى محاربة الآخر وتعقب سفنه ، واحترزت كل من الدولتين الأموية الأندلسية والفاطمية على سواحلها من عدوتها . وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت البابوية تجتهد فيه فى توحيد قوى الدول النصرانية وتوجيهها لحرب المسلمين . وإلى هذا الجهد البابوى يرجع الفضل فى توجيه پيزا وچنوا قواتهما وجهة دينية وتوحيدهما لحرب المسلمين ، وكانت هذه كلها طلائع ضعف الجبهة البحرية الإسلامية وتراجعها وخروج البحر الأبيض الغربى من سلطان المسلمين ، وذلك كله يكون — فى اعتبارنا — طرفاً من المقدمات البعيدة للصليبيات .

* * *

خاتمة :

هذه هى قصة دخول المسلمين البحر الأبيض وسيطرتهم عليه ، وتحويلهم إياه إلى بحيرة إسلامية طوال ثلاثة قرون ، وما ترتب على ذلك من نتائج فى العالمين الشرقى والغربى .

وقد رأينا أن المسلمين سيطروا بالفعل على أمواه ذلك البحر ، وسادته أساطيلهم الرسمية وغير الرسمية ، وملكوا عنانه وحالوا بين غيرهم وبين تسيير السفن فيه ، ولكن ذلك كله لم يعد أن يكون سيطرة حربية كان ينبغى أن يفيد منها المسلمون . نعم إن السفن والمتاجر كانت دائمة السير بين ثغور المسلمين فى الشرق والغرب ، وأن الحركة كانت عظيمة بين موانى الشام ومصر والمغرب والأندلس ، ولكن هذا النشاط البحرى لم يكن بالقدر الذى كان يمكن

الوصول إليه . وإنه لمن الغريب حقاً أن نجد ثغوراً مثل عكا ويافا وصور وصيدا وعسقلان وتنيس ودمياط والإسكندرية تهبط عما كانت عليه أيام الرومان والبيزنطيين بدلا من أن تعظم وتنشط ، حتى دور الصناعة وفن بناء السفن نجدهما فى تقهقر مستمر . وربما كان هذا أضعف جانب فى البناء العام للدول الإسلامية ، لأن هذا الضعف البحرى هو الذى حال بين المسلمين وبين القضاء على بيزنطة منذ زمن مبكر ، فبقيت عقبة كؤوداً فى سبيل التوسع الإسلامى سياسياً ودينياً . ومن ناحية أخرى نجد أن العالم الإسلامى الغربى إنما أتى من جانب البحر قبل أن يؤتى من جانب البر ، وكان ضعف البحريات الإسلامية المنظمة من آكد الأسباب فى ضياع الأندلس وجزائر البحر ثم فى انهيار دول المغرب بعد ذلك . وهذه كلها ملاحظات نبديها سراعاً ، إذ لا يتسع المجال لبحثها فى هذا المقام بحثاً مطولا . وبحسبنا أن نضعها تحت أنظار الباحثين للتأمل والدراسة .

سيطر المسلمون على البحر الأبيض ولكنهم لم ينتفعوا به الانتفاع الواجب ، ظل فى نظرهم دائماً حداً أو ساحة قتال دون أن يستطيعوا تحويله إلى طريق سلام وانتقال وتبادل تجارى وغير تجارى . ملكوا عنان البحر ولكنهم لم يستعملوه استعماله الصحيح ، فضاعت عليهم الفوائد التى كان يمكن أن تعود عليهم لو أنهم حولوا هذا البحر إلى أداة اتصال وتقارب كما كان على عهود الرومان وكما سيصبح فى العصور الحديثة . والبحر الأبيض ليس مجرد مساحة مائية ، وإنما هو همزة وصل بين ثلاث قارات ، وأداة طيبة جداً للسلطان والجاه والغنى ، ومهد لحضارات إنسانية كبرى ؛ والاتصال به والانتفاع منه بركة كبرى على من يستطيع ذلك ، ولكنه نقمة على من لا يستطيع . ولم يدرك المسلمون هذه الحقائق الهامة إلا بعد فوات الأوان ، وانتقال البحر الأبيض إلى أيد غير أيديهم .

حسين مؤنس

مراجع البحث

(ا) أصول :

ابن الأثير : الكامل ، ط تورنبرج ١٨٦٧ — ١٨٧٦ ، والقاهرة ١٣٤٨ .

أمارى ، ميكيلى : المكتبة الصقلية ، ١٨٥٤ ، ٣ مجلدات .

البلاذرى : فتوح البلدان ، ط القاهرة ١٩٣٢ .

ابن حوقل : صورة الأرض ، ط كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

ابن حيان : المقتبس ، ط ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ .

ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ط لايبسيك ١٨٦٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٣٦ .

« « : المقدمة ، ط بيروت ١٨٨٦ .

الطبرى : تاريخ ، ط دى خويه ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تورى ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠ — ١٩٥٢ ، حـ ٢ .

ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ط ليڤى پروفنسال ، القاهرة — لايدن ١٩٣٨ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ط دوزى ، لايدن ، حـ ١ و ٢ ، وطبعة ليڤى بروفنسال وكولان ، لايدن ، ج ١ .

الكندى : القضاة والولاة ، ط روفن جست ١٩١٠

المسعودى : التنبيه والإشراف ، لايدن ١٨٩٤ .

المقرى : نفح الطيب ، ط لايدن ١٨٥٥ — ١٨٦١ ، والقاهرة ١٩٤٧ .

المقريزى : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ .

« : النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، القاهرة ١٩٣٧ .

النويرى : نهاية الأرب : ط جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٩ ، ج ١ و ٢ .
ابن هشام : سيرة الرسول ، ط محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٤ أجزاء .
الواقدى : مغازى ، ط فون كريمر ، كلكتا .
أبو يوسف : كتاب الخراج ، ط المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٠٢ .

(ب) أبحاث :

إبراهيم العدوى : المسلمون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٢ .
حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ج ٢ عدد ٢ — ١٩٤٩ .
سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .
شارل ديل : البندقية ، ترجمة عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٧
شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا .
عبد الرحمن زكى : السلاح فى الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ .
عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، القاهرة ١٩٥٣ .
فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، حـ ١ ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥١ .

(جـ) مراجع غير عربية :

AMARI, MICHELE. *Storia dei Musulmani di Sicilia* (2'. éd de Nallino, Cattane 1933).

CAETANI, L. *Annali dell Islam* (Milan 1905-1910) vols 1-3.

CANARD, M. *Expéditions des Arabes contre les Byzantins.* Journal Asiatique, Mars 1926.

CHALENDON. *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile,* Paris 1907.

CHEIRA, M.A. *La Lutte entre les Byzantins et les Arabes*, Alexandrie, 1942.

DE GOEJE. *Memoire sur la conquète de la Syrie* (dans ses Memoires d'histoire et de géographie orientale) 2 vols. Leyde 1886.

DOZY. *Musulmans d'Espagne*, éd. Lévi Provençal, Leiden, 1932, 3 vols.

GASPAR RIMERO, MARIANO. *Cordobeses.*

GAUTIER. *Le Passé de l'Afrique du Nord*, 2'. éd. 1937.

GAY. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin depuis l'avènement de Basile 1er. jusqu'à la prise de Bari par les Normands.* Paris, 1907.

GROHMANN, A. *From the World of Arabic Papyri*, Cairo, 1951.

HEYD, W. *Histoire du commerce du Lévant au Moyen-Age*, trad. fr. 2'. éd. Leipzig 1923.

HITTI. *Origins of the Islamic State*, New-York 1916.

MOSS, H. ST. L.B. *The Birth of the Middle Ages.* London 1946.

PIRENNE, HENRI. *La civilisation occidentale au Moyen-Age* (Paris 1933) Hist. Génerale de Glotz, vol. VIII.

PIRENNE, HENRI. *Mahomet et Charlemagne.* Paris, Bruxelles 1937.

PROVENÇAL, LEVI. *Histoire de l'Espagne Musulmane*, 1er. éd. Le Caire, 1944.

PROVENÇAL, LEVI. *La Peninsule Iberique au Moyen-Age.* Leiden 1938.

RUNCIMAN. *Byzantine Civilisation.* Oxford 1935.

SCHAUBE, ADOLF. *Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmurs gebietes bis zum Ende der Kreuzzuge.* Munchen-Berlin 1906.

VASILIEV. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols (Paris 1932).

WUSTENFELD. *Die Kampfe der Araber mit den Romern* (Nachrichen d. K. Ges. Gottingen) 1901.

المسلمون فى حوض البحر الأبيض

إلى الحروب الصليبية

صفحة

صفحة